اميل حبيبي



حكاية مسرحية

لكع بن لكع

ثلاث جلسات أمام صندوق العجب

اميل حبيبي

لكع بن لكع

ثلاث جلسات أمام صندوق العجب

حكاية مسرحية



١٩٨٠

دار الفارابي بيروت - ص.ب ١١/٣١٨١

"لا تقوم الساعة حتى يلي امور الناس لُكَعْ بن لُكَعْ"

حديث شريف

إهداء

إلى حنين وفرح

حتى يكون اللقاء بينهما فرحا

الجلسة الاولى

مجنونة بدر

« أناديكم . أناديــــكم .
أشــد علــى أياديــــكم .
أبوس الأرض تحت نعالــــكم .
وأقـــو ل أفديـــكم .
فمأساتـــي التي أحيـــا
نصيبـــي من مآسيـــكم »

توفيق زيـــاد

- ١ -
صنـــدوق العجب
الفرجة برغيف فوق طبق طرعاني

لا مسرح ولا من يتعبون . بل جمهور من أهل الحارة ، ونحن من أهلها ، يجتمعون لقضاء أمسية أسطورية مع صندوق العجب .

ونكون مؤهلين لضرب الماضي بالحاضر والخلف بالسلف والحابل بالنابل . فقد قيل لنا أن ثمن الفرجة على صندوق العجب رغيف من الخبز العربي الذي ، لأمر ما ، أبقوا على عروبة اسمه . وقد وقعوا في هذا الإهمال الأمني حرصاً على الاضطهاد القومي الذي في البدء كان . فرغيف الخبز العربي في بلادنا أغلى ثمناً من الخبز الإفرنجي بقرار من الدولة ، وما أدراك ما الدولة . قطعت عنه الاعانة الحكومية المقررة لسواه من خبز العيش على اعتبار أنه بذخ كتعاطي البسكويت والجاتو والطورطة .

وَيكونُ أَصحابُ الأُمسيَةِ قد انْتَدبوا صَبّياً وَصَبيّةً يقفان أمام باب القاعَة وَهُما يَحْملان طَبقاً منْ وَرَقِ النَّخيل كَالَّذي كانت جَدّاتُنا تَجْدُلُه وَتَصُفُّ عليه أقراصَ العجين فنَحْمِله نحن ، أحفادُهنّ إلى الفُرْن القريب . وَيكونون قد جاؤوا بهذا الطبق ، شَرْطاً ، من قرية طرعان الجليليّة القائمة على عَهْد هذه الأطباقِ حتى يَوْمنا هذا مُتَحَدِّيةً الاسْتيطان الذي يُطبقُ علَيْها من كُلّ جانب .

ويكون المشترك في الأمسية قد حطّ رغيفه على الطبق . فنحطّ رغيفنا ونقبل على الفرجة منفرجي الأسارير .

وفيما نحن على هذه الحال من الانفراج إذا برجل ، في ثياب المهرجين ، يتقدم نحو صدر القاعة وهو يدفع أمامه بعربة صغيرة نصب فوقها صندوقاً مزركشاً بزخارف . ويعلق على كتفه اليمنى ، كما تعلق البندقية ، مقعداً خشبياً ضيقاً بطول الصندوق . وعلى كتفه اليسرى يعلق كشكولاً كبيراً متدلياً حتى رجليه كأنه يد ثالثة . ويكون للصندوق طاقتان من زجاج كأنهما عينان بلا رموش . عينان جامدتان أشبه بعيني حمار أعجم . والحمار الأعجم كما تعلمون ، هو ذلك الحمار الذي سلم ، بالعجمة ، من عاهة النطق . فأنعم وأكرم !

ويكون للصندوق أذنان مستديرتان كبيرتان هما دولابان من خشب في قفا الصندوق . دولاب في اليسار ودولاب في اليمين . ونعلم ، نحن الذين أخنى علينا الذي أخنى على لبد ، أن شريطاً من الرسومات الاسطورية الملونة قد لف على عمود الأذن اليمنى وربط أوله بعمود الأذن اليسرى . فيحركها صاحب الصندوق فيتحرك شريط الرسومات ، من وراء العينين الزجاجيتين ، من اليمين إلى اليسار - حكمة ، لو تعلمون ، قديمة . وأما نحن ، القدماء ، فنفهم من هذه الإشارة أن صاحبنا محسوب على أصحاب الميسرة .

هذا هو ، إذن ، صندوق العجب كما كان آباؤنا وأجدادنا يسمونه . وفي بلدان عربية أخرى سمي صندوق العجايب . وفي غيرها صندوق الدنيا . وأولاد الحارة - نحن ومن حولنا - صناديق مقفلة . فيأتي المهرج ، بصندوقه وبحكاياته ، حتى يحطم أقفاها .

وأشدُّ ما يشدّنا إلى المهرّج الشبه بينه وبين صندوقه : العينان متشابهتان إتساعاً وجموداً . والأذنان ضخامة واستدارة . كما تشابهت الزخارف :

أجراس ماعزية تجرّس وحوافز خروفية جافة تخرّف وخرق متعددة الألوان ، متنافرة ، تزركش بها المهرّج كما زركش بها صندوقه حتى كأنهما يحتفلان بعيد الاستقلال .

فلا نتمالك أنفسنا عن الدهشة . ونحتفل بصندوق العجب بإبداء التعجب وبالمهرج بالهرج . حتى إذا علا اللغط والتساؤل ولا جواب سوى الهسهسة ـ أي هس هس ـ إذا بالمهرج ينيخ مقعده أمام عيني صندوقه . ثم يخرج من كشكوله صنجين نحاسيين مستديرين كأنهما رغيفا خبز أخرجا ، للتو ، من التنور . فيحمل كل صنج في يد . ويصفق بهما ثلاثاً . فيسكن الهرج وينقطع اللغط . فلا همهمة ولا هسهسة كأن على رؤوس أهل الحارة الطير . وتدهمنا القحقحة فنعتبرها قحة . فنكظمها تهيباً .

ويروح المهرج ويجيء . يصفق بصنجيه وينشد أشعاره القديمة حتى كأننا ، يا بدر ، لا رحنا ولا جينا :

« قم تفرج يا سلام على عجايب الزمان »

يكون المهرج ، صاحب الصندوق ، ينشد وينادي :

« قم تفرج يا سلام على شيء كان وما كان
شوف بوزيد الهلالي قاعد يُبَعزق بأموالي
شوف ذياب بن غانم ، غانم أيش وهو نايم ؟
شوف تغريبة بني هلال . صار الخال بقدر الحال
قم تفرج يا سلام على عجايب الزمان
صندوق العجب !
صندوق الدنيا !
تعالوا وتفرجوا على ما كان
وعلى ما هو كائن . شيء كان وشيء يرفض أن يصبح

في خـــبر كان .
تعالوا يا صناديق الدنـيا ،
يا أولادي !
تعالوا نفتحهـا !
افتحوها . تنفسوا ملء صدوركم . شهيق . زفير
شهـــيق ، زفيـــر !
حين كان ما كان ،
في غابر العصر والأوان ،
وكنت أطل على الحارة بصندوقي ،
أجرس بأجراسي وأخرف بحوافري الخروفية ،
كان الصغار يتحلقون حولي كاهلال الخصيب . ويتناوبون
النظـر فـي عيني صندوقي ،
اثنـــين اثنـــين .
كانت أجنحتهم مكســورة .
فكنت أحكي لهم عن العقبان والنســور .
كانـوا صعاليـك .
فكنت أحكي لهم عن فرســان الصعاليك .
كانوا ريشة في مهب الريح .
فكنت أحكي لهم عن بســاط الريح .
وكانت الفرجة برغيف . فاذا عز الرغيف فبنصفه أو بربعه .
فإذا جاءت الست بدور
بولدها بـــدر
فبابتسامة من عينيها المرعوبتين .
أنا ألفّ بالشريـط .
والدنيـا تلف بنـا .
تلـف وتـدور .
هلموا يـا أولادي .

لقد عز الرغيف ونصف الرغيف
وربع الرغيف .
ولكن نظرة العطف والحب
والشوق باقية . »

وفجأة يتوقف المهرج عن الكلام وينتصب أمامنا بلا حراك حتى نحسبه تمثالاً نحت في صخر ، حين يحتوينا صوت الشيخ إمام وهو ينشد أبياتاً من قصيدة توفيق زياد : أناديكم :

« أناديكم . أناديكم .
أشد على أياديكم .
أبوس الأرض تحت نعالكم
وأقول أفديكم !
فمأساتي التي أحيا
نصيبي من مآسيكم .
أناديكم . أناديكم
أشد على أياديكم
أنا ما هنت في وطني
ولا صغرت أكتافي
وقفت بوجه ظلامي
يتيما عارياً حافي
حملت دمي على كفي
وما نكست أعلامي
وضعت العشب فوق قبور أسلافي
أناديكم . أناديكم

أشد على أياديكم » . *

وما أن يتلاشى هذا الصوت المتفجر حتى تعود الحياة إلى تمثال المهـرج . فنسمعه يعود إلى نداءاته : « أناديكم . أناديكم ! تعـال يا بـدر . تعالـي يا بـــدور ! كأننا يا بـدر ، لا رحنـــا ولا جينـــا .

* الشيخ إمام عيسى ، من حي الغورية العتيق بالقاهرة . فنان شعبي وثاني اثنين أحدهما الشاعر المصري أحمد فؤاد نجم : هذا ينظم الشعر قلائد من دمه وذلك يغنيها على أوتار فؤاده فيجتمع الشعر والغناء في نقطـة أرخميدس ، إلا أنهـا فوق أرضنـا : بـين العمال والطلبة .

-٢-
لابَدر ولابدران ، ولابدرية ولابَيدر !

وفيما نكون مترددين بين السماح لأولادنا بالتفلّت منا ، تلبية لندائه ، وبين إحكام القبضة عليهم ، على أن الأمر مجرد تشخيص ، إذا بامرأة وقور في ثياب خريفية ، على جمال خريفي ، تنتصب من بين مقاعدنا وهي تردّ على المهرج ان : « لا ! لا ! بل رحنا وجينا . ولكن بدراً لم يعد » !

ونراها ، وقد شدتنا المفاجأة إليها ، تتقدم نحو المهرج وقد خفضت من جناحيها كما لو أنها طير يطوف حتى يهبط .

ونلتفت نحو المهرج فإذا بحالنا من بعض حاله : يُسقط صنجيه ويتمتم بقم وتفرج ولكن بغير يا سلام . ويرددهما بلا مناداة . ويهم بأن يحرك أجراسه فلا يقوى على حركة سوى أن يميل إلى اليمين وإلى اليسار فعل رقاص الساعة .

وما أن يلتقيا حتى يدور بينهما الحوار التالي ، والباديء المهرج :

المهرج : بدور ! بدور الخرساء
سوى طلاقة عينيها .

بدور : بل بدور الخنساء يا قشمر !

المهرج : بدور البشائر . .
طير السنونو المبشر بعودة الربيع !
أرأيت ، يا بدور ؟
لا رحنا ولا جينا .

بدور : بل رحنا وبقيتم يا قشمر .

المهرج : بقينا حرصاً على البقية يا بدور .

بدور : وتركتمونا ، في متاهات الفيافي ، نتيه في مجاهل التجربة الأولى .
وكأنكم لم تكونوا ؟
هل ولدنا من الحائط .
يا غربال الماضي ؟

المهرج : صندوقي علمني ، يا بدور ، أن مسيرة التاريخ البشري قد حفرت ، عبر آلاف السنين ،
أخدوداً عميقاً في جبين الأرض
حتى لا تنساب جميع الأنهار
إلا في هذا السّيب ،
في طريقها إلى مصبها .
لا سيب أمام أي شعب من الشعوب
سوى التجربة الذاتية .
وما من شعب يستفيد .
من تجارب الشعوب الأخرى .
كان عليكم أن تقلعوا أشواككم
بأظفاركم !

بدور : هل أصبحتم يا قشمر ،
من الشعوب الأخرى ؟
لماذا كان علينا أن ندفع
كل هذا الثمن ؟

المهرج : لا تلومــي الضحيــة .
بدور : لماذا كان علينا أن نحمل
كل هـذا الزمــن ؟
المهرج : لا تلومــي الضحيــة .
بدور : لماذا كان علينا أن نكبـو ؟
المهرج : لا تلومــي الضحيــة .
بدور : ثم كان علينا أن نحبــو ؟
المهرج : لا تلومــي الضحية .
بدور : لماذا نحــن غربــاء ؟
المهــرج : ولكن غرناطــة لم تنسكــم .

وإذا بالمهرج يرفع صنجيه عن الأرض ويصفق بهما وينادي :

« استمعي يا بدور ! استمعي يا دهــور .
إلى شاعـر الأندلس الطريـد* يغني على أرغوله
لحــن حنيـن إلى غرناطـة . »

وإذا بشيخ مهيب الطلعة يرتدي عباءة عربية فضفاضة يُقْدِم نحو المهـرج وهو يحمـل أرغـولا يزمـر فيه لحنـاً حزينـاً . ويظـل اللحـن الحـزين يعلـو وينخفض ، وهو ينطلق من مكان إلى آخر في القاعة ، في حين يأخذ الشيخ في القـاء الأبيات التالية في صوت رتيب وخفيض :

« ها نحن غرباء عن هذا العالم إلى الأبد ،
ما دامت غرناطـة تنسانا .
يا شعبي ، المتناثر مثل سرب من الحجلان :

* الشاعر أراغون والأبيات من قصيدة « حب لاسبانيا » ترجمة الأديب السوري الدكتور أحمد سليمان الأحمد (مجلة « المعرفة » السورية ، كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٨) .

نيران أخرى جاءت تشتعل في قراك ، تتحدث عن إله آخر بلغة أخرى .
أين تمضي باحثاً عن أوطان وهميـة ؟
أيها العصر الذهبي !
أيها العصر الذهبي المتألق من كل الجهات .
يا عصر الآلام الغرقى بالدم من كل الجهات .
يعرو الخوف ملك أسبانيا حين يشاهد الهلال يبدو قبل الأصيل » .

ويمضي الشيخ بأرغوله . ولكن اللحن يظل يلح على أسماعنـا إلحاحـاً. ويعود المهرج إلى بدور . ونكون مضطربين : ماذا يعتمل في صدر بدور ؟ وإذا بالمهرج يعود إلى مخاطبة بـدور :

المهرج : يظل القشـر يحن إلى عوده .
ها أنت تعودين يا بدور .
بدور : أعود بدوراً خريفيـة .
المهرج : الخير في بـدر .
بدر الربيـع .
بـدر الدجـى .
سـراج الدنيـا .
بدر سيعـود .
بدور : بدر عاد يا ابن عمـي .
عاد بدر يا حنيـن الصبـا .
المهرج : أين بدر يا بـدور ؟
هل عادوا وأبعـدوه ؟
بدور : بعدهم عن أن يقووا على
إبعـاده !
المهرج : فهل حبسـوه ؟
بدور : كما يحبس جذر في بطـن

الأرض .

المهرج : أين بدر يا بـــدور ؟

بدور : في بطـــن أمـــه .

المهرج : اين بدر يا بدور ؟

بدور : قيل لي أنهم يدفنوننا
في حضن ربـــوة
تستلقي فوق رمال
عـــكا .
نُبَرِّد أطرافنا بماء البحر
وحيـــن تفيض . .

المهرج : لقـد فاضـــت .

بدور : يدفنوننا في حضن ربوة شقيقة
على الخط الأخضر ،
في مقابر قرية المقيبلة
على الخط الأخضر
فنطلع البقول ناضجة
وحين تفيض . .

المهرج : لقـد فاضـــت .

بدور : يدفنوننا في أطراف الطيبة الطيبـة .
علامات حدود . .
وحيـــن تفيض . .

المهرج : لقـد فاضـــت .

بدور : يدفنوننا في مدافن بني صعب
في الطيـرة
حتى كأننا في مدافـــن
غزة هاشـــم .
وحين تفيـــض . .

المهرج : لقد فاضت .

بدور : يدفنوننا في مرتفعات
أم الفحم .

المهرج : نيران أخرى تشتعل
فوق هذه المرتفعات .

بدور : ففي كفر قاسم .

المهرج : كفر قاسم وقف على أولادنا .
وقد فاضت بهم !

بدور : وبدر ، يا ابن عمي ،
أما هو من أولادكم ؟

المهرج : اليد واحدة والتربة واحدة . .
ففي أية قرية مأواه ؟
أين مسقط رأسه ؟

بدور : بحثت عنه بين أولادكم .
بحثت عنه في كفر قاسم .
في سخنين في كفر كنا . .
بحثت عنه في الطيبة .
فلم أجده في مقابركم .

المهرج : بدور !
أين بدر ؟

بدور : كان يحب رحيق الصبار .
كان يأكل التينة بشوكها
ويظل يلح ويطلب .
بحثت عنه تحت جذورها .
رحت أقتلعها وأنبش عنه .
فكانت تعصى عليّ .

يعود الصبار ويطلع .
ويعود الصبار يسخو
برحيقـــه .

المهرج : بـــدور !
إن الصبار لا يزول .
باق كما صبــر العربي
بـــاق .
حتى في الأندلـــس .
لوركـا ظـل يغني :

« هنا وهناك تتردد أصـــداء
الصبـــار العربـــي »

بعد ثمنمئة عام !

بدور : لأن بدراً ، الموسَّد ،
لا يشبـــع .
لا يرتوي من رحيـــق
الصبـــار .
يظل يعض عليه
بالنواجـــذ .
ولا يكـــل
ولا يمـــل .
إن أسنان بـــدر
كمّـــاشـــة .

المهرج : بـــدور !
أين بـــدر ؟

بدور : وجدتـــه . .

المهرج : أيـــن ؟

بدور : هنـــا . هنـــاك .

هنـــا .
أقـــرب .
أبعـــد .
ولـدي ! أولادي !

ونراها ونحن مصعوقين ، تتوجه نحونا مشرعة جناحيها حتى كأنها تـود أن تضمنا ، جميعاً ، إلى حضنها . إلا أن المهرج لا يكف عنها . وإذا به يهتف بها :

المهرج : وبدران ، يا بـدور ؟
أيـــن بدران ؟
بدور : عـــرق في النهـــر !
المهرج : أي نهـــر ؟
بـدور : أي نهـر .
من المحيط إلى الخليـــج .
المهرج : وبدريـــة ؟
بدور : باعهـا الأميـــر في سوق
النخاسيـــن .
المهرج : أي أميـــر ؟
بدور : أي أميـــر .
من المحيـــط إلى الخليـــج .
المهرج : وبيــدر ؟
بدور : افتقدتــه في البيادر ؟
المهرج : أيــة بيــادر ؟
بدور : أية بيـادر .
حين تسيّج البيـــادر
كل البيادر بيـــادر !

وفيما تكون ماضية تشق طريقها في وسط جمعنا ، ونحن نشيعها بنظرات الإعجاب وبصفق الأيدي ، إذا بها تلتفت نحو أولاد افترشوا الأرض بالقرب من مقاعدنا ، الواحد أمام الآخر على طول الممر الذي يتوسط القاعة . فتهتف بهم ان :

« قوموا تفرجوا على صندوق العجب . أحلى من غزل البنات ومن محشي ورق العنب . إن في صندوق هذا المهرج نجمتين تبددان الحلكة :
ما كان وما سوف يكون . قوموا ! لا تجعلوه يفوتكم كما فاتني . قوموا !
لا تجعلوه يبقى عنكم كما بقي عني . قوموا ! قومــوا ! »



- ٣ -

أحد عشر حجاباً اسود وطفلتان وحجاب أحمر واحد

ونعود بجوارحنا إلى المهرج وقد جرحته بدور بذهابها . فيعود إلى صنجيه يصفق بهما كما تصفق الندابات بأيديها . ويقول :

المهرج : كانت بدور تركتنا مضيعين
وتعبيـــن .
فأردنا أن نوسد رؤوسنا على صخور
مراعينـــا
وان ننام على أطول حلم
باللقاء الموعـــود .
فاقتلعوها
وجعلوهـا علينا حرامـــاً ،
لا في نـــوم
ولا في قيامـــة .
فأردنا أن نعيش على أطـول
حلم باللقـــاء
معتصمين بحبـــل الصبر ،
بشـــوك الصبـــر ،

بالصبـــر الحامض ،
بالصبـــر المخدر ،
بالصبـر الذي سبقنا بـه
الحشيش والأفيون وشم الكوكايين ،
بالصبـــــر
هذا السلاح الوحيـــد
الذي يبيـــح بـه الآبـاء
قتل أولادهـــم : اصبـــر !
أصبـــر على الضيـــم . .

وإذا بصوت ، كأنه الآهة في الليل الكظيم ، ينطلق مردداً هذه الكلمات على نغم الموال البغدادي (الابراهيمي) . فيسمّرنا . ويسمّر المهرّج في وقت معاً :

صـــــوت :
« اصبـر على الضيم لو جار الزمان وحكم
فالنذل ، يا ناس ، على سبع البراري حكم
والباز قدره وطي والبوم ساد وحكم
ناديت : يا أهل الحمية اليوم قدري ضاع
الفاينـــة تنقبل والصالحـــة تنضاع !
ناديت : يا أهل البيت هالحين حقي ضاع
قوموا انظروا واعدلوا واجروا عليّ الحكم »

فيرد عليه المهرج ، وهو يروح ويجيء في مشية المتهكم أو في مشية الذي اسقط في يده :

المهرج : قوموا انظروا واعدلوا واجروا عَلَيَّ الحكم .
ناديـــت . .

ما تركونـا ننام كي نحلم باللقاء .
وما تركونا نعيش ، با لصبـــر ،
حتى اللقـــاء .
أيقظونا على مجرد البقاء .
أيقظونـــا !
جعلوا عيشنـا طيشـــا
وصبرنا حركة سريـــة .
قصروا عيشنا حتى ضاق عن لحظة
صبـــر .
أصبح الصبـــر هو
القـــــبر .
وعيشنا أصبح كلـــه
يقظـة . ما أصعب العيش الذي كله
يقظـــة .
ما أضيق العيش الذي يضيق
عن الصـــــبر .
قوموا انظروا واعدلوا .
تعالوا يا أولاد الناس .
تعالوا واجروا علينا الحكم !
بـــدور !
إن من خلّف ما مات
يا بـــدور .
تعال يا ولدي .
يا ابنتـي .
تعال يا خلـــف .
تعالـي يا خليفـة .
يا صابر تعال و يا صابـــرة .

تعالـــي .
تعالـوا ـ
يا صبر ويا صبرة
يا صبار ويا صبرين ،
يا أيـــوب
ويا أيوبـــة !

وإذا بسرب من الأولاد ، صبيان وصبايا ، أولئك الذين كانت بدور قد حثتهـم على مشاهـدة الصنـدوق ، يهرعـون إليه ويصطفـون على جانبـي الصندوق كأسنان المشط متأهبين لأن يتناوبوا القعود على مقعده والتحديق في عينيه الزجاجيتين ، اثنين اثنـين ، ذكراً وأنثـى كما خلقهـم ربهـم الـرؤوف بعبـاده .

ويكون المهرج في هذه الأثناء ، قد اخرج من كشكوله صحيفة مطويـة . ويفتحها مثلما كانت تفتح صحيفة من جلد الغزال . ويعلقهـا المهـرج على ستارة ظاهرة للعيـان .

فإذا هي صحيفة واسعة تخللتها خطوط في غير تنسيق أو في تنسيق قد خفيت حكمته عنا . وتحسبها حروفاً وما هي بحروف . وتحسبها وجوهاً آدميةوما هي بوجوه آدمية . وقد ترى فيها جبالاً وقد ترى فيها سهوباً . وما هي بالجبال وما هي بالسهوب .

ونروح بأبصارنا نحو الصحيفة فلا تستريح على طلاسمها . بل يعجزنـا أمرها . ولكننا نتعالى ، تعالي الجاهل ، عمّـا ينم عن جهلنا بالأمر . ويتركنا المهرج ، ونحن على هذه الحال ، ويتوجه إلى مشط الأولاد قائلاً :

« قوموا انظروا واجروا علينا
الحكـــم .
قومـــوا !

اثنيـــن اثنيـــن ـ
ذكراً وأنثى كما خلقكم ربكم .
انظـروا هنـــاك .
انظروا في الصحيفة وما تخللها من خطوط
ورســـوم ،
دارسة وسادرة
وساردة .
واحكوا لنا عمّا تشاهدونـه
في صندوقــي .
افتحوا صناديقكم
وتنفســوا .
شهيـق زفيــر .
شهيـــق . زفيــر .
أنتمــا ! »

ويشير إلى فتى وفتاة . فيتقدمان ويجلسان على مقعد الصندوق . وينظران في عينيه الزجاجيتين . ثم يستديران ناحيتنا :

الفتى : أرى في الرسم رسوماً دارسـة .
قمقماً من قماقم سيدنا سليمان الحكيم .
الفتاة : أرى مارداً ينطلق من قمقم محطم .
قمقم من قماقم سيدنا سليمان الحكيم .
حطموه عليه ليحطموه .
فانطلـــق !
المهرج : وأنتمـــا !
فتى آخـــر : أرى أثقالاً على ظهر حمّـــال .
فتـــاة أخرى : أراه يهم بأن يلقيها عن كاهله .

المهرج : وأنتمـــا !
فتى آخر : أرى مرجاً مخضباً بالدمــاء .
فتـــاة أخرى : أراه مرجاً من الورود الحمراء .
المهرج : اتفقـا !
الفتى : ورود فوق أضرحــة .
الفتـــاة : ورود .
الفتى : ورود .
المهرج : وأنتما !
فتى آخر : أرى الشمس غاربـــة .
فتـــاة أخرى : بل أراها وهي تشرق .
المهرج : اتفقـا !
الفتى : تشرق في الغــد .
الفتاة : الغــد مشـرق .
المهرج : اتفقـا !
الفتى : احبها وتحبني . اتفقنا منذ وقت طويل
على غدنا المشرق .
احبها وتحبــني !
الفتاة : أحبـــه . أحبـه .
ولكن ما العمل بأهلــي ؟

وتخفي الفتاة وجهها بكفيها خجلاً وخوفاً وتهم بالهروب . فيقطع المهرج عليها سبيل الهرب بصرخة مدويـــة :

المهرج : قفي ! قفي يا ابنة العرب اسمعينا ! إلى أين أنت هاربة ؟
الفتاة : إلى حضن والدتي .
يا أمّــاه !
والداي في القاعــة ينظران

كما تنظــرون .
وينظـرون وينتظـرون .
نواطيــر علينـــا .
يا أمّـــاه !

المهرج : أحضان الوالدين حانية كأشجار الحور
في جنان الخلد .
ولكننا ، بعـد ، خارج الجنان ، بعــد ،
نعيــش !
فاسمعينا يا ابنــة العرب !
يا ابنة العرب اذكرينـا
واذكري ما فات

الفتى : ما فـــات !

المهرج : اسمعينـا يا دنيـا
نحكي لكم عن أحضان في بلادنـا
أصبحت أضرحــة .

ويخرج من كشكوله دفاً يروح ينقر عليه نقراً بطيئاً ثم يسرع في النقر على دفه . ويمضي أمام الأولاد ويجيء وهو ينادي :

المهرج : هل جاءكم خبر كفر قاسم
ورقصة الموت في كفر قاسم ؟

فيــرد عليـه الأولاد منشديـــن :

: « أما تفرج ، يا سلام ، عينك ترى العجايب . »

ويتقدم أحـد الفتيـان نحونا ثم يقول :

أحـــد الفتيان : عادوا من أماكن عملهم والشمس عائدة

إلى حضن المغيب القاني .
كان المغيب يحبس أنفاسه
حتى يطلقها دفعة واحدة .
أيها المغيب
حتّـام تحبس أنفاسك ؟
ألا تختنق ؟
اطلقهـا أيها المغيـب .
اطلقـــها .
نحـــن نختنـــق !

الفتيان : أما تفرج ، يا سلام ، والحاضر يعلم الغايب .

الفتى : عادوا إلى القرية زرافات
ووحدانــا .
ولكنهم جمعوا فيا بعـــد ،
في كومـــة واحـدة .

الفتيان : أما تفرج ، يا سلام ، وأعمل حالك مش شايف .

الفتى : جاءوا وهم يطرحون
السلام
على الضابط المكلف بتنفيذ عمليـــة ـ
أخضـــــر .

فتاة : أخضـــــر ؟

المهرج : معناه أن الطريق سالك .

الفتاة : سالـــك ؟

المهرج : مالـــك ؟

الفتاة : أي طريق ؟ الخط الأخضر ؟ الخضر الأخضر ؟

المهرج : سيـــان ! الخط الأخضـر .
السياج الأخضر .
الخضر الأخضر .

سيـان !
كله أخضر كخضراء الدمــن !

الفتيان : أما تفرج ، يا سلام ، إن كنت ، بالله ، مش خايف .

الفتى : طرحوا السلام على الضابط المكلف :
شالوم أيها الضابط .

صوت : هل أنتم مبسوطيـن ؟

الفتيان : تمام ، أيها الضابط .

صوت : أحصـــدوهم !

ويأخذ المهرج في النقر على دفه . فنسمع صوتاً شبيهاً بصوت طلقات المدفع الرشاش . أو هذا ما ارتسم ، عبر طبلات آذاننا ، في مخيلات عقولنا . ومما يزيد الضغط على مخيلات عقولنا صرخة أنثوية حادة تنطلق ، دفعة واحدة ، من صدور الفتيات :

الفتيات : احصـدوهـم .
احصـــدوهم .
أحصـــــــدوا !

إلا أننا لا نراهم يسقطون . وإذا بالفتاة نفسها تصرخ :

الفتاة : لماذا لم يسقطوا ؟ لقد حصدوهم !

المهرج : لأنهم لم يموتـوا يا ابنتــي .

الفتاة : بل ماتـــوا .

المهرج : لو كانوا ماتـوا
لسمعنا الصخر يبكـي .
فكيف لم يبـك من هـم بين
المحيــط والخليـــج ؟

الفتيان : أما تفـرج ، يا سـلام ، عينك ترى العجايب .

الفتى : جاؤوا في تسع موجــات ،

موجـة أعلـى من موجــة .
وسقطوا فــي تسع موجـات .
وظلـت الكومـة تتكـوم .
جاءت الموجـة التاسعـة والأخيـرة .
في أساطيـر الأقدمـين أن الموجة التاسعـة ،
في البحـر الهائــج ،
هـي الأشـد هـولاً وفتكـاً .
الموجـة التاسعة حملت أربع عشـرة امرأة
وفتــــاة ،
بينهــنّ طفلتـــان ،
نقلن في شاحنة من حقول مدينة اللـــد
المحرمـــة
حيث كن يجمعن ثمار الزيتون المقدس .

المهرج : لقّاطـــات .

الفتى : سائق الشاحنة ،
حين رأى الجثث المكومة ،
حصيلة الموجات السابقة ،
أراد النفاذ بشاحنته نحو القرية .
العساكر أوقفته عنــوة .
وأمروا الركاب بالنزول .

المهرج : سائق الشاحنة .
فتى من الطيبة .
زينة الشباب .
نزل من مقعده وتوجه نحو مؤخرة الشاحنة .
نصب سلماً خشبياً وتوجه نحو النسوة والبنات
وهو يقول ،
وعيش السامعين يطول :

« انزلن يا أخواتي .
ولتشرع كل واحدة بطاقة هويتها
بيدهـــا .
نحن لسنا فدائييـــن .
ولا متسلليـــن
ولا مسلحيـــن
ولا نازلين على طريق حيفا ـ تل أبيب
خلســـة
ألقينـــا السـلام عليكـــم
ألقينـــا الســـلام عليكـــم
ألقينـــا الســـلام
ســـــلام
ســـــلام عليكم »

وتصـطف الفتيات الخمس ، وقـد أسـدلن على وجوههـنّ أحجبـة سوداً شفافة ، في حلقة راقصة . يرقصن أمـام الفتيان وهـم يغنـون معـاً ، أغنية « ألقينا السلام عليكم . »

وفيما هم على هذه الحال من الرقص والانشاد ، والمهرج منزوٍ في مكان قصّي وهو مكتوف اليدين ، إذا بأحد الفتيان يخرج عن الجمع ويتقدم إلى امام وهو ينادي علينا :

أحـــد الفتيان : أعينونا يا بنات العرب !
بالبنات الخمس ، الراقصات الآن ،
لا يكتمل العدد
ولا تروق الحكاية .
أكملن النصاب ،

يا أخواتي وأمهاتي ،
بسبع نساء وطفلتين .
رقصة الموت في حاجة إلى
سبع نساء وطفلتين
حتى يجتمع لنا أربع عشرة أنثى
عـــداً وهـــدراً .

الفتى : نزلن .
فرأين الجثث المكومة .
فأخذن يستعطفن العساكر أن يأذنوا لهنّ
بالحيـــاة :

فتاة : برأس أمك ،
يا خواجـــة ،
أن تتركنـــا نعـــود إلى
القريـــة .

فتـــاة أخرى : أبوس أيدك ، يا خواجة ،
خلّني لأطفالي !

فتاة ثالثة : يخليّ لك شبابك
تخليّ لي شبابـــي .

فتـــاة رابعـــة : السلام عليكم وعلى عيالك
يا خواجـــة .

وإذا بالفتية والفتيات ، ويكون المهرج في وسطهم ، ينشـــدون ويرددون الكلمات التالية على نغم الأغنية العبرية المنتشرة عالمياً ـ

(هبيـــنوا شالوم عليخـــم) :
« ما نادى المنادي إلى الموت
وعزّ الطلب
في دنيـــا العرب .

فكيف ونحن نرقص رقصة الموت فحسب
ونشخـص تشخيصــاً ! »

ونشعر بالحركة من حوالينا . ويتحاشى واحدنا النظـر في عيني إلْفــه . ويكون الرقص والانشاد أمامنا قائماً . وتنجلي الحلبة عن خمس نساء يعتلـين مسرح الصندوق وهنّ متحجبات بالأسود الشفاف .

وإذا بالفتى نفسـه يعود ويهتف بنا :

« كــف يا شباب ! كف يا شباب ! »

فنلبي نداءه على هـّم . وبعضنا يفعلها استحياء . وبعضنا يفعلهـا وهـو يشرق بدمعه . إلا أن الفتى ، وقد تهدج صوته ، يمضي في ندائه .

« بقي عليكم أن تجودوا بوالدتين
وطفلتيهما .
كل والدة وطفلتهـا .
اثنتيــن اثنتيــن
أربــع أناث . فيكتمل النصــاب . »

وإذا بامرأتين تندفعان خارج صفوفنا وتعلوان نحو مسرح الصندوق . كل امرأة ووراءها طفلتها متعلقة بأذيالها . والوالـدة تدفـع بالطفلـة بعيداً عنهـا والمولودة لا ترخي قبضتها الصغيرة عن ثوب والدتها . والمرأتـان متحجبتـان بالحجاب الأسود الشفاف . وأما الطفلتـان ، ويا للعجـب فسافرتـان . أنهما سافرتان !
ويقفز المهرج من زاويته وقد حمل دفـه . ويأخـذ في النقـر عليه صليات صليــات .

وتتجمع النسوة ، القديمات والقادمات ، تحاول الواحدة أن تحتمي بجسم الأخرى . وتندفع الواحدة محاولة أن تخترق الصف الأمامي فتندفع الأخرى

والأخرى والأخرى . حتى يتحول الضغط في اتجاه المركز إلى قوة اندفاع دائري . وإذا بكرة آدمية تتشكل أمام أنظارنا . وإذا بالكرة الآدمية تدور حول مركزها في رقصة الموت التي لم يتحدث عنها بعد ، أي شاعر ولم يرسمها ، بعد ، أي رسام . إلا إذا لم نفهم طلاسم الصحيفة الشبيهة بجلد الغزال .

ويستمر الفتية في إنشاد أغنيتهم . ويستمر الفتى المتقدم بالهتاف ، بين الفينة والفينة . « كف يا شباب ! » ونستجيب له تارة استجابة المسحور لساحره ونوقظ الآخرين من هذا السحر تارة أخرى .

وتكون المرأتان ، بطفلتيهما ، على سطح الكرة الآدمية . الطفلة تندفع نحو أمها صارخة يا أماه ! والأم تدفعها عنها صارخة : « أهربي ! أهربي يا مّـاه . »

وينقر المهرج على دفه صلية رتيبة . فتقفز الأم الأولى عالياً بعيداً عن الكرة الآدمية . تطلق من صدرها آهـة أشبه بزغرودة الأفراح ثم تسقط بعد أن تكون في حركة عفوية ، قد رفعت حجابها عن رأسها وألقته جانباً . فتندفع الطفلة نحوها فتقفز الطفلة قفزة خفيفة في الهواء ثم تسقط بالقرب من والدتها دون أن تحسن إطلاق الآهـة الزغرودة .

وتظل الكرة الآدمية تلف وتدور . ويطلق المهرج من دفه صلية أخرى . فتقفز الأم الثانية وتسقط كما سقطت الأولى بعد أن تطلق زغرودتها وتسقط حجابها . فتندفع طفلتها نحوها مثلما فعلت الطفلة الأولى فتلقى المصير نفسه .

ويظل المهرج ينقر على دفه صلية صلية . فتقفز المرأة أو الفتاة في الهواء خارج الكرة ثم تسقط بعد أن تطلق آهتها وتسقط حجابها . حتى يسقط الجميع سوى امرأة واحدة وجدت نفسها في مركز الكرة الآدمية . وتكون منتصبة مثل نخلة باسقة بعد هدوء العاصفة . وتكون تحمل حجابها في يدها . وإذا به حجاب أحمر شفاف .

- ٤ -

لكع بن لكع

ونلتفت إلى المهرج فإذا هو مصاب بالذهول . يسقط دفه بين الأحجبة المتناثرة ويتقدم نحو المرأة ذات الحجاب الأحمر المخلوع وهو يحاول أن يحتضنها بنظرات عينيه الواسعتين . فيشدنا المهرج إليه . ونصاب بعدوى ذهوله حتى لا نرى الفتية والفتيات يعودون إلى مقاعدهم في هدوء . ولا يبقى متناثراً فوق مسرح الصندوق سوى أحد عشر حجاباً أسود شفافاً وطفلتين سافرتين . ولا يبقى منتصباً فوق مسرح الصندوق سوى المهرج المصعوق والمرأة ذات الحجاب الأحمر في يدها . وإذا هي بدور نفسها .

المهرج : بدور !

بدور : بدور ذات الحجاب المخضب .

المهرج : كنت هناك ؟

بدور : هناك ؟

المهرج : أعني هنا !

بدور : كما تراني ، إني هنا !

المهرج : أعني هناك !

بدور : هناك ؟

المهرج : ربي أعني ! .. هنا .

بدور : هنا . هناك .
ساحمك الله يا قشمر .
ألا تعلم أن الأسياد قد خلطوا بين
الأبعـــاد ؟

المهرج : بــــدور !

بدور : وهل يقرر المكان سوى الانسان ؟
أنت هنا وأنا هناك .
أنت وأنا الآن هنـــا .
نحـــن هنـــا .
كنت هناك يا قشمـــر .
ومثـل هذه الرقصـــة
رقصنا في كـل
مكـــان .
فحيث نكون علينـــا
أن نرقـــص .
رقصوهـــا يا حنين الصبـــا .
رقّصوهـــا وهم يزفونها إلى النهر
عروســـا .
خضبوهـــا بالحنـــاء
في شهرهـــا التاســـع
وزفوهـــا إلـى النهـر
عروســـاً !
سلام عليها ، تلك الظبية الطريـــد ،
وهي تـــزف ،
نزيفـــاً نزيفـــاً ،
فوق بساط أرجواني من الزعتـــر .
ضمخوهـــا ببخـور الصنـدل

وجاؤوا يحملونـها على مركبـات من نـار
عزوساً فاردة !
رقصونـا يا قشمـر !

المهرج : بـدور !
بدور : تكلـم !
المهرج : من هـم ؟
بدور : أيهمُ الضبيـة صيادهـا .
المهرج : والأنهـار ؟
بدور : تعلو مياهها فوق حد الخطر
فيلقون في النهر بالمزيد من
العرائـس .
المهرج : عرائسنـا ؟
بدور : عرائسـهم .
عرائسهـم عرائسنـا .
يعلون السدود ، يا ابن عمي ،
فيرتفع منسوب النهـر .
على شطآن نهر ونهر
أقاموا أراجيـح
لعرائسـهم .
وفي وادي نهـر آخـر
زنزنـوا عرائسـهم .
وفي آخر صانوا أعراض أفواه
عرائسـهم .
وأما فروجـهم فلها الانفتـاح !
إن البكـارة في شرقنـا
خـرس
والصبـر في شرقنـا

هو الإيمـــان !
إلا أن منسوب النهـر يعلـو
ويعلـــو !
ستقـوم الساعـــة !

المهرج : بـــدور !
بدور : إن بركاناً يتململ تحت الأراجيــح .
المهرج : بـــدور !
بـدور : ينطلق من بيـن الحطـام .
المهرج : بـــدور !
بدور : من تحت القصور .
المهرج : على مهلـــك !
بدور : مهلـي مهلــي
ويفنـــى أهالــي . .
المهرج : مهلـــك !
بدور : الذل مهلـك .
المهرج : استريني ، يسترك الله بستره ، حتى يغضوا الطـرف عن صندوقي فأعرضه في حاراتهم .
بدور : يا ساتر . يا ستـــار !
إن كلمة السر هي الستـــر .
المهرج : كلمـــة الســـر ؟
بدور : دم دا دم دم واحـــدة ،
ذات رسالة خالـــدة .
المهرج : دم دا دم دم ؟
بدور : جهل جهلجل واحدة
ذات رسالـــة خالـــدة .
المهرج : جهـل جهلجـــل ؟
بدور : بلع بلعلع واحـــدة ،

ذات رسالـة خالــدة .

المهرج : بـدور ؟

بدور : خرس خرسرس واحدة ،
ذات رسالة خالــدة .

المهرج : بـدور ؟

بدور : حبس حبسبس واحدة ،
ذات رسالـة خالـدة .

المهـرج : سلام على عقلك !

بدور : شنق شنقنق واحدة ،
ذات رسالة خالـدة .

المهرج : انك تهذين

وإذا بطرق شديد على ابواب القاعة ، من الخلف ومن الجانبين فتشرئب اعناقنا وتقب له شعورنا .

ونسمع من خارج القاعـة صياحـاً : « شرطـة . بوليس ، افتحـوا . افتحوا » ، وتكون بدور في اثناء هذه الجلبة تصرخ :

بدور : قشمر ، ابن عمي ، اين انا ؟ هناك ؟

فيجيبها المهرج : بل هنـا !

بدور : أيـن ؟

المهرج : في بلاد الواق الواق .

بدور : إنك تهذي

المهرج : جاء دوري !
تهذي أو لا تهذي أجيب لك أبريق الزيت ؟

بدور : مـاذا ؟

المهرج : ماذا أو لا ماذا أجيب لك أبريق الزيت ؟

ويعود الطرق على الأبواب شديداً . ويعود صياح العسكر .

بدور : دعهم يدخلون !

المهرج : لو أرادوا الدخول ما انتظروا اذني .
يحطمون الأبواب ثم يدخلون .

بدور : مثل أشباههم هنـــاك .

المهرج : ثم يزعقون ويغيـرون .

بدور : يزعقـــون ؟

المهرج : حتى يتقيأوا آدميتهم .

بدور : يغيرون على حفلة تشخيص ؟

المهرج : فعلوها ويفعلون ولا يشخصون
ســـوى الجثث .

بدور : فلماذا لا يغيرون ؟

المهرج : لأن الأمر الآن مجرد تشخيص .
جـــزء من أمسيتنا الليلـة .

ثم يتحول المهرج نحونا . يحمل صنجيـه ويصفق بهما ويقول :

المهرج : لا شرطـــة ولا بوليـــس .
لا مـــن هناك ولا من هنـــا .
فاهدئي يا بـــدور
واستريحـــوا يا جماعـــة .
لقـد كانـت الغـارة ـ
الآن ، الآن وليس غـــدا ـ
مجرد تشخيص لإثارة مشاعركـم
علـى الطريقـة العصريـــة .
أردنا أن نُمْتـِع أعصابكـم لا أن نمتحنهـا .
رحم الله شاعر الأندلس الجـوال ـ
التروبـــادور ـ
ابـــن قزمـــان .

لما رأى الناس لا يقبلون على شعره
اصطحب قرداً
فكان يلاعبه حتى يجتمع الناس عليه
فيلقي قصائده .
لقد فعلناها .
وأخذناها عن الغجر .
سقا الله أيام الغجر .
كان الشيخ يجوب الأمصار وهو يصطحب طفلة ترقص
ودباً يلعب
وقرداً يقلد ستي العجوز وهي تعجن العجين .
لقد جئناكم بصندوق العجب
وبراقصات حتى الموت
وبصنوج وبدفوف
وبحوافر خروف .
فلماذا لا تجيئكم بالشرطة ،
بالعسكر ،
بالبوليس ؟
كله مجرد تشخيص !

وإذا بامرأة ، أم أطفال ، تنتفض واقفة من بين مقاعدنا وهي تصرخ في وجهه :

« كان جديراً بكم أن تعلنوا عن منع الاولاد دون السادسة عشرة
من الاشتراك في هذه السهرة ـ كما يعلنون في الأفلام السينمائية .
أخفتم أطفالنا ! »

فيجيبها المهرج : كان هذا الأمر ممكناً ،
يا أختي ،
لو كان من الممكن أن تقي الأولاد

دون السادسة عشرة
بطاقة خُطَّ فيها أن
« لا تقتل الأولاد دون السادسة عشرة »
ثم تلصق بقنبلة تهوي على
صـور وصيـدا .

ثم يتحول المهرج نحو بدور ويقول :

« تعالي ، يـا بـدور .
أعينينـي على إيقـاظ الطفلتين
وعلى دفن الأحجبـة السـوداء
لعلنـا نقوم بعمل مفيـد واحـد
في هـذه الليـلة . »

وفيما تقوم بدور بهذا العمل المفيد يأخذ المهرج بالتصفيق بصنجيه . ثم يسحب صندوقه بعيداً بعيداً ووراءه تمشي بدور تحمل الأحجبة السوداء ووراءها الطفلتان .

ونسمع المهرج يقول :

« موعدنا القريب ، أيها الجمع الحبيب ، في الجلسة الثانية على مقعد الصندوق . » .

ونسمعهم جميعاً يهتفون ، وهم يختفون عن أنظارنـا :

« صندوق العجايب ، الحاضر يعلم الغايب . الحاضر يعلم الغايب »

فنصفق طويلاً . ونخرج لتناول المرطبات وفي حلوقنا غصة وفي صدورنا انقباض . ونرغب في أن نسترجع أموراً في مشاهد الصندوق تذهب بانقباضنا . فنبتسم إعجاباً بأنفسنا ولسان حال الجماعة يقول :

« ما لنـا ولهذه الهمـوم ؟ ! »

الجلسة الثانية

بَدر ..

« الجدع جدع
والجبان جبان »

شعر أحمد فؤاد نجم
غناء الشيخ إمام

- ١ -

فــلافــل !. فــلافــل !

الحارة هي الحارة . وأهلها هم أهلها : قاعدة قاعدية تصلح في كل مكان وفي كل زمان إلا في بلادنا وفي زماننا . ففي بلادنا أصبح الشذوذ هو القاعدة والقاعدة هي الشذوذ .

فعلى أيهما نبني ؟

خذ لك مدينة الناصرة الأخّاذة . فقد بقيت مثلاً على هذا الشذوذ الأخذ : أبقوا القديم من حاراتها على قدمه ، سجناً متداعي الجدران . وظل أهلها هم أهلها لم يتبدلوا لا في ظاهر ولا في باطن ـ شعباً ولغة وتقاليد موروثة تكبر مع الصغير حين يكبر ويتزين بزينة الحياة الدنيا ويأخذ في ترميم ما تهدم من جدران وما تداعى من تقاليد .

ولا يتبادرنّ إلى أذهانكم إني بهذا القدح ، أو ، إن شئتم ، بهذا المدح أخص ، من دون العمران الظاهر ، ناصرة الظاهر عمر ـ المنارة المشيدة فوق جبل القفزة ، ناراً أبدية تخلّد ذكرى بني تغلب الذين أقاموا ، كما تناقل الرواة ، في مرج بني عامر .

حاشا وكلا !

إلا أن حديث بني تغلب في مرج بني عامر ذو شجون . كان الرواة ، فيما مضى ، يجوبون بلاد العرب على بساط الريح . يشرِّقون ويغربون ما وسعتهم أخيلتهم الخيّالة . البلاد بلادنا والخيال خيالنا نجمع فيها وبه كما نشاء . كل سهل قريب وكل جدار طيب ! كان ذلك قبل مجيء الرجل الأبيض واستخراج الذهب الأسود .

فأنت تقرأ ، في الحكاية الشعبية ـ « قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل الكبير » ـ ان بني تغلب استوطنوا بادية الشام . وإذا بالحكواتي يطير بهم فإذا هم ، بلا مقدمة ولا مؤخرة ، مقيمون في مرج بن عامر في فلسطين . فماذا عدا مما بدا ؟ « قصة الزير سالم أبي ليلى المهلهل الكبير » حكاية تروى في أرض الله الواسعة القائمة ما بين المحيط والخليج . لقد أعدتها إليه ، ذي الجلال ، موقناً أنه قادر ، عزّ وجلّ ، على أن يصونها .

ويبدو لي أن البطولة ، حتى في سالف العصر والأوان ، لا تحق لصاحبها إلا إذا أقام في فلسطين ، صابراً متصبراً ، وعلى مشارف الناصرة شرطاً .

فما من قدح فيما ذكرت عن حارات الناصرة سوى قدح زناد .

أضف إلى هذه الواقعة البسطريحية* أن اسم الناصرة منتشر في العديد من معالم العمران . تتعدد الناصرات في الدنيا تعدد اسم الأسد في لغتها أو نيف . ونحن نعلم ، على سبيل المثال ، عن ناصرة ، نازاريت ـ أطلقت على حاضرة من حواضر الولايات المتحدة الأمريكية . ولا نعلم عن نسبها شيئاً . وأسفرت ثورة ميريام الأثيوبية عن الوجه المشرق ، الملتهب بارادة التغيير ، للناصرة الحبشية . وأنسابنا الحبشية ، عبر اليمن السعيد ، ضاربة في غور التاريخ . وقد تجددت نسبة إلى تلهفنا على التجديد . فنعم القديم ونعم الجديد .

---

* نسبة إلى بساط الريح .

وفي بلادنا شيّدوا « قرينـة » للناصرة . وهـي النـاصرة العليا ، العلّـية ، البـاب العـالي ، « نتصرات عيليت » . فتظهـر ، كما تظهـر « القـرينـة » ، لناصرتنا في الليل البهيم : بهيمة لها عدة رؤوس مصابـة بالعاهـة البـابلية . أرادوا لها أن تظهر ، في الليل البهيم ، لناصرتنا حتى تردعها عن شق طريقها في الليل البهيم وتصرفها عن سواء السبيل في الليل البهيم فتضل فتهلك . غير أن ناصرتنا قائمة على أرض مأسدة . و« القرينة » ، مهما تتزين وتتحضر تظل عجوزاً قائمة على حافة قبرها تحتضر .

إن في السماء لخبرا . وإن في الأرض لعبرا . فما بال البهائم لا تفقه ؟ !

أرض الله واسعة . وخلقه مرتبطو الأنساب حتى لا « دم نقي » سوى دم البهائم . وهذه البدعة البهيمية لم تأتنا إلا على لسان البهائم .

وكان في بلادنا ـ ويا ما كان في بلادنا ـ وزير للمعارف وللثقافة بلغ به الخلط بين وطنية الآدميين وبدعة البهائم شأواً عجيباً . فلما لم يجد في تاريخنا ذكراً لهذه البدعة أنكر علينا الوطن !

إلحقوني ، أيها المؤرخون والمستشرقون والمستعربون ! هل هناك من مرآة تعكس أفكار عامة الناس ومشاعرهم أصفـى من الحـكاية الشـعبية ؟ ولقـد وجدت في « قصة الزير سالم ، أبي ليلى المهلهل الكبـير » ، وهـي تعـود في أصلها إلى شخصية هذا البطل الجاهلي وظل الرواة الشعبيون يتناقلونها عبـر ألف عام ونيف وإلى يومنا هذا ، حديثاً مثيراً يصلح مفاضلة بين معارف البشر وثقافتهم وبين بدعة البهائم .

وذلك حين غدر قوم جساس بالزير سالم ، أبـي ليلى المهلهـل الكبـير . أثخنوه بالجراح ثم حشروه في صندوق ألقـوه في البحـر . فجرفـه التيار إلى شاطىء في مملكة « الملك حكمون ، ملك بني إسرائيل » . فاحتفل به حتى

تعافى . فأوكله بسياسة الخيل . ومن هنا نترك الرواية للرواية .

« فانتخب له فرساً من أطايب الأفراس . كانت طويلة العنق قصيرة الرأس . وأجود من القميرة فرس جساس . فاعتنى بتربيتها حتى حالت . فأخذها إلى شاطىء البحر . فخرج عليها حصان من البحر . فشبّ عليها فراحت حامل . وبعد عام ولدت مهر أدهم . وكان كامل الأوصاف ململماً . فسماه الأخرج لخروج أبيه من البحر . ثم فعل معها ذلك الفعل ثانية . فولدت له مهراً آخر كأنه الأبجر ، حصان عنتر . فسماه أبا حجلان . واعتنى بهما دون باقي الخيل . وكان يسوسهما في النهار والليل . . »

قال الراوي : « واتفق ، في تلك الأيام ، أن برجيس الصليبي ، أحد ملوك الأروام ، خرج مع أخيه في مئتي ألف رجل من بلاد كسروان لمحاربة حكمون اليهودي . . وعند إشراق الصباح التقى العسكران وتقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتقت الفرسان الصليبية بالأبطال الاسرائيلية » .

إلا أن الأبطال الاسرائيلية هزمت في هذه المعركة ، في ذلك الزمان . وكان المهلهل يحثهم على القتال وعلى الصمود . فرأته ابنة الملك حكمون . وكان اسمها أستير . فعلمت أنه بطل نحرير . فطلبت من أبيها أن يستدعيه . ففعل . فامتطى المهلهل صهوة جواده الأخرج . وحارب الصليبيين فأبلى بلاء حسناً حتى هزمهم .

قال الراوي : « وعظمت منزلة الزير عند حكمون . وقال : مثلك تكون الفرسان . فانك اليوم عندي كالولد ، وأعز من الروح في الجسد . فلولاك كنت في حال تعيس واستولى علينا الملك برجيس . .

وكان الملك قد مال إليه كل الميل . فقدمه على جميع فرسان الخيل . ورفع منزلته على الكبير والصغير . ولقبه بالأمير . . وأكرمه غاية الإكرام . وأجلسه

على سفرة الطعام . فلما فرغوا من الأكل وشرب المدام ، قال له الملك تمنى عليّ أيها الأمير ، والسيد الخطير . فمهما تطلب أعطيك دون تأخير . فطلب منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر الأخرج . وأن يجهز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا . ومن هناك يسير وحده إلى مرج بن عامر محل إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته » .

فلبى الملك حكمون طلب الزير سالم ، أبي ليلى المهلهل الكبير ـ الحليف للحليف والخل الوفي للخل الوفي .

وهكذا عاد الزير سالم سالماً إلى أهله وعشيرته في مرج بن عامر سالكاً الطريق المرجية من حيفا إلى ديار بني تغلب في مرج بن عامر . والحمد لله ، الذي لا يحمد على مكروه سواه ، على ما أصاب بني تغلب من سيطرة البدعة البهيمية . وأنظر كيف اختارت العرب العاربة ، على مر السنين والعصور ، ملكاً وهمياً من ملوك بني إسرائيل ملجأ لبطلهم الأسطوري الصنديد وفارسهم العنيد وصديقاً وفياً في العاديات حتى كأنه السموءل بن عادياء ، و السموءل من قبله . فسبحان خالق الأرض والسموات الذي خلقهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا .

هذا ما جرى لبني تغلب ولحيفا ولمرج بن عامر ولحارات الناصرة التي بقيت وبقي أهلها ـ شذوذاً عن القاعدة الشاذة في بلادنا الشاذة .

أما ما جرى للشذوذ الذي أصبح قاعدة في بلادنا فخير مثل أضربه لكم عنه هو مدينة يافا القديمة . ولا أعني يافا القديمة تعميماً . بل أخص حياً واحداً من أحيائها الباقية . فالتعميم في بلادنا يؤدي إلى التعتيم .

إننا نتحدث عن البشر الأحياء منهم لا الأموات . فلا نستطيع أن ندرج فيهم مقابر يافا على شاطىء البحر الأبيض المتوسط . فانهم أقاموا فوقها فندق

هيلتون . وما فاض عن حاجته أصبح منتزهاً عاماً يتعاطى فيه رواده الحب والعذرة والمخدرات والشذوذ الجنسي والمهربات .

كما أننا لا نستطيع أن نتحدث ، في مجال القاعدة والشذوذ والقاعدة الشاذة ، عن حي العجمي في يافا . فقد ظل ، حتى كتابة هذه السطور ، يتكلم العربية الملوثة . وهذه الواقعة هي التي جنت عليه كما جنت اختها على عكا القديمة . لقد أهمل فأصبح جوه ملوثاً حتى غضبت الشمس عليه فبخلت عليه بنورها . إلا أن العين البصيرة ، ذات اليد القصيرة ، تستطيع أن تخترق ركام المزابل والوجوه الصفراء فترى أطلال الهندسة العربية ، تلك التي انتشرت حتى الأندلس واجتازت بحر الظلمات .

وحين كنا في هفانا دي كوبا دعينا إلى مأدبة عشاء أقامها لنا رفاق ورفيقات كوبيون في مطعم تحيط شرفاته ، ذات الأعمدة الشرقية الشبيهة بقامات الغواني ، صحن بيت قديم ذكرني بأبنية يافا القديمة وعكا القديمة . وكانوا يعزفون ألحاناً كوبية أندلسية . وكنا نشرب عصير البرتقال . وكانت الألحان تعصر حشاشاتنا . واغرورقت عيوننا بدموع الفرحة بالحلم الشرقي القديم الذي قدر على بحر الظلمات فتحقق في كوبا . ما أعظمه وما أشد إشراقه ! وهتفت ، كما نهتف حين ننتشي بالطرب : « ما غالب إلا الله » ! وكان إخواني يرددون : « الله ! الله » !

فقد أتاني ، اللحظة ، شعار دولة المرابطين في الأندلس ، آخر من نطق بها في الأندلس ـ « ما غالب إلا الله » . أتاني ما قرأته عن رحالة أوروبي عصري وجد ، في سقف كنيسة مكسيكية ، نقشاً عربياً ، خطوطاً متناسقة وملونة في نقش بديع ذكّره بالنقوش في قباب جامع قرطبة الكبير على قوارير ساحة الرياحين في حمراء غرناطة . فتصفحه ملياً حتى فك رموزه وقرأ شعار المرابطين : « ما غالب إلا الله » .

شعار نقشه عبد عربي صانع ، بناء ، أنـدلسي بائس . مقطـوع في بلاد نائية . نقشه تعزية وحتى يقوى على الاستمرار في الحياة .

ورأيته ، بعيني خيالي ، يسترق الخطى صعوداً إلى سقف الكنيسة حتـى يطرح السلام على نقشه ويستجير بنقشه . ورأيته ، بعيني خيالي ، وهو يحدق بنقوشه ويلمسها ويمر بأصابعه المعروقة عليها مراً خفيفاً ، لمس العاشق شفتي معشوقته . ورأيته ، بعيني خيالي ، وحيداً في كوخ طيني أخرس وأعمى ، بلا أنيس وبلا ضوء في الليل الغريب ، وقد افترش الأرض المجهولة وأسند رأسه المتعب إلى كفّيـه وأخذ يبني ، من كلمات نقشه ، جسراً فوق بحر الظلمات . ثم أخذ يمشي فوق هذا الجسر عائداً إلى والديه وإلى اخوته وإلى والدته . أين بدور ؟ كيف حالها بعدي ؟ الله ! الله ! يا عكا القديمة . الله ! الله ! يا يافا لقديمة .

هذا ما جرى لحي العجمي في يافا وما جرى لعكا القديمة في هفانا .

أما الحي القديم في يافا القديمة ، الذي أضربه مثلاً على القاعدة الشاذة في بلادنا ، فهو « ساحة الساعة » . حين تعبر الشارع القديم من تل أبيب إلى يافا وتشم رائحة البحر تجدك في ساحة الساعة .

الساعة في مركز الساحة . أشبه بمئذنة شامخة . قامة منتصبة لم يحنها الزمن كما لم يحن قامة شيخ من أولئك الذين اشتـركوا ، أيام الشبـاب ، في ثورة **١٩٣٦** . وفوق القامة المنتصبة ساعة ضائعة تحصي الزمن الضائع .

وعلى أحد الجانبين تكمن للخلق درنة مسخمة كبيرة محاطـة بسـور فوقـه وأمامه أسلاك شائكة . تلك هي وجار الشرطة . ويضم سجناً أولياً ، مثـل قولك : « إسعاف أولى » . يجري فيه اسعاف الزبون باللكم وبالركل . ذاك بالقوائم الأمامية وهذا بالقوائم الخلفية .

هنا وقع الصدام الدموي بين قوات الجيش والشرطة البريطانية وبين التظاهرة الشعبية الوطنية الكبرى في **٢٧** تشرين الأول **١٩٣٣** . وكان صدرها من صدور عمال يافا وبحارة يافا . وسقط منهم ثلاثون قتيلاً عدا العدد الكبير من الجرحى . إلا أن دم الشهيد يظل يلح ويستطعم . كانوا غزلاً إلا من جراحهم . فكرُّوا على الدرنة وأوقعوا الخيالة عن خيولها . تكفنوا بالأسلاك الشائكة وأشهدوا الساعة على أنهم لم يبخلوا بأرواحهم حتى تقوم !

وأما في الجانب المقابل للدرنة فتصبر على الزمن الضائع حوانيت قديمة ـ منذ أيام العرب ـ تباع فيها المأكولات الشعبية ، من الفلافل حتى حساء العدس . بقيت الدكاكين وبقيت أسماء المأكولات . وفوق الدكاكين تزاحمت المقاهي الشعبية الذابلة . تصعد إليها على درجات ضيقة ومعتمة . على هذه الدرجات كنا نسترق الخطى ونتسلل ، في إستحياء ، إلى حيث يفرغ الشعب فراغه . فإذا مسكنا كنا نعتذر ونقول : علينا أن نكون مع الشعب دائماً . وها نحن هنا معه ، في بؤسه وفي بوسه !

لقد ظلت الحوانيت والمأكولات وأعراض البؤس والبوس على حالها ، منذ أن غادرتنا بدور .

ولكن نيراناً أخرى تشتعل الآن في أثافيها .

فلافل ! فلافل !

- ٢ -

تموت الحمير وتحيا الزرِيبَة

أما في حارتنا ، في سهرتنا المتعة مع صندوق العجْب ومع المهرج العجيب ، فقد بقيت الحارة وبقي أهلها . كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

بدر ؟ شهيد الزمن الضائع .

ونحن ؟ أيُحسب ما نمضيه من زمن في هذه السهرة ، الملهاة ، في الزمن الضائع ؟

مسكين المؤلِّف !

كم ضيّع من زمن ، من عمره ، حتى يفرغ همّه في ليلة من ليالينا الفارغة . على أيش ؟ هؤلاء المثقفون المتحررون ! يسكبون عصارة قلوبهم في الكلمة وهم يحسبون أنها قادرة على قلب العالم ! الكلمة وحدها ؟

ولو لم تكن وحدها !

هل بخل آباؤنا بأرواحهم ؟ فلماذا نلومهم على الزمن الضائع ؟ هل هم ضيّعوه ؟ !

وفيما نحن في هذه الهموم ، قاعدين على مقاعدنا ننتظر ، إذا بخفوت الأنوار ينبؤنا بأن المهرج ، بصندوقه ، يوشك على أن يعود إلينا . فنهرب من همومنا

إليه وواحدنا يتفرس في وجوه جيرانه وجاراته لعل بدوراً ، أو غيرها من المشخصين ، بينهم .

وتمسك الريبة بأنفاسنا . فواحدنا يعرف الجميع . وكلنا معرفة . وقد يكون عبد الله ، زوج جارتنا الحسناء ، أمة الله ، واحداً من المشخصين وقد أخفى الأمر علينا . ها هي أمة الله . فأين زاغ زوجها ؟ الله ! الله ! يا عبد الله على هذه النعمة . هل زمنه ، هو أيضاً ضائع ؟!

وتشط بنا الريبة شططاً شططاً : هل أنا واحد منهم ؟ هل نحن ؟ هل جئنا نتفرج على التشخيص أم جاء المهرج ليوقع بنا ؟ سمعت هذا المهرج ، يوماً ، يردد كلمة علي بن أبي طالب إن « أفعالكم أنطقتنا » . هل تورطنا ؟ بالقلب ، هل تورطنا ؟ !

اطفئوا الأنوار في القاعة حتى يظل ما في القلب في القلب مستوراً لا تراه العيون . اطفئوا الأنوار حتى نتقي عيني هذا المهرج أو يتقي عيوننا .

وفيما نكون نهتف هذا الهتاف في سرائرنا إذا بهاتف من بين صفوفنا يهتف : « أطفي الضو ، أطفي الضو ! . فيرد عليه آخر : « هل عادت الحرب ؟ » فيجيبه الأول : « بل عاد قشمر بن غمرة » .

وإذا بنا نسمع صفق الصنوج . فيغمض الظلام عيونه سوى أضواء مسلطة على مسرح الصندوق . وإذا بالمهرج يعود وهو يدفع بصندوقه . ونسمعه يقول :

« إن الحرب لا تعود ، يا أولادي ، بل تأتي .
الحرب تُقْدِم . الحرب تجيء .
فما من حرب إلا جديدة حتى ولو استعملت فيها الأسلحة القديمة .
الضحايا جديدة ، في كل حرب ، يا أولادي .

والقتيل لا يقتـل مرة ثانيـة .
إلا بالكلمـة . .
والقذيفـة ، بعد اطلاقـها ، لا تـرد .
ولا تغسل ولا يعاد استعمالهـا .
الحـرب لا تعـود .
الحـرب تجـيء » .

وإذا بنا نسمع هتافاً أنثوياً أن « يحيا السلام ! يحيا السلام ! » يتردد ويعلو باقتراب صاحبته منا .

وإذا بحمار أعجم ، أعني حماراً أصيلاً ، يُدفع نحو المهرج وقد زركش بمثل ما زركش المهرج صندوقه بل أكثر رونقاً . وتكون امرأة مهندمة ، أنثى لا غبار عليها ، تسوقه من مؤخرته فلا يتأخر . وتكون تهمزه بعصا في يدها وتردد هتافها : « يحيا السلام ! يحيا السلام ! . فتطربنا رؤية الحمار فنضحك عالياً كما لم نضحك منذ ثلاثين عاماً . وتضحكنا ، خصوصاً ، ضحكات أطفالنا وقد خرجوا عن الطـور .

يقيناً ان أطفالنا لم يحرموا ، بعد ، من مشاهدة الحمير . إلا أن هذه الهيبة الملكية ، التي يتمخطر بها حمارنا على وقـع « يحيا السـلام ! يحيا السـلام ! » ويَتَمَخَّط على مسرح الصندوق كما لو أنه رئيس أمريكي يلقي كلمة ارتجالية أمام المكرفـون ، منظـر لم يشاهـده أطفالنـا ، منـذ أيام العـرب . مثلما لم يشاهدوا ، في عزلتنا المثيرة ، راقصات البطن الذائع الصيت وهيبـة الملـوك والأمراء وشيوخ النفط ، وجهاً لوجه . ونستثني الرؤساء لسببين : أولهما أننا مرؤوسون ، رئيس تحت رئيس تحت رئيس وهلمجرا حتى لم يبق مرؤوسـاً سوانا . وثانيهما أنهم شاهدوا كافور الاخشيدي ، من بعيد لبعيد . فكفروا بالرؤساء ولم يعد هذا الشكل يضحكهم . فلا عجب إن أصابهـم ، الآن ، العجب . فاغربوا في الضحك وفي الطرب .

ويخيل إلينا أن المهرج قد اندمج في هذا الجو المرح . فها هو يبدأ في الجلسة الثانية على مقعد الصندوق وهو منفرج الأسارير يقـول ، وعمـر السامعـين يطول :

« لا بأس . لا بأس يا أولادي .
اضحكـــوا !
فالضحك يطلق اللســـان
ويشفي مـــن خـــرس .
يا أجيـــال الصمـــت !
آن لك أن تضحكي .
تكلمــــي !
فإذا لم تتكلمــي ، اضحكــي !
اضحكـــوا . اضحكـــوا .
إذا حبســوا أنينكم ، انفجـــروا ضحكـاً .
انفجروا ضحكـاً .
الضحك سلاح ماضٍ ذو حد واحد .
لو ضحك السجناء كلهم ، في لحظة واحدة معاً ، واستمروا في الضحك ،
هل يستطيع السجان أن يضحك ؟
إذا قالوا لكم أن الضحك بلا سبب من قلة الأدب ،
كونوا قليلـي الأدب !
شـر البليـة ما يضحـك .
فهل هنـاك بلية أشر من هذه البلية ؟
اضحكـــوا !
العين للبصر والأذن للسمع واليد للمس والفم للقبل .
فاضحكـــــوا !
ولولا خوفي من أن ينتبهوا إلى هذا السلاح فيشرعوا قانوناً يحظرون به
عليكم ماء البحر والضحـــك . .

لا غرقتكم بالضحك .
اضحكـــوا ! »

ونكون نضحك ونصفق . ونـكون في هرج ومـرج . وتـكون المرأة تردد هتافها وتلمس دبر الحمار وذيله بكفها البضة . وإذا بالمهرج يصفق بصـنجيه ويتحول نحو الفتاة المهندمة قائلاً :

المهرج : السلام يحيا ، يا ست الحسن ، يحيا السلام . ولكن ، ما هــذا ؟
ست الحسن : حمـــار
المهــرج : أشهر من أن يعرف . ولكن ، أما كان أصلح لك أن تقتنــي دراجـــة ؟
ست الحسن : هذا يطلع الطلعة بغير جهـد مني .
المهرج : دراجـــة بخاريـــة .
ست الحسن : هذا يأكل شعيراً ولا يحتاج إلى بنزيل
المهرج : بنزيـــل ؟
ست الحسن : بنزيـــم
المهــــرج : نفط ، يا ست الحسن . نفط . بترول . بترو . . .
ست الحسن : بترو ؟ هذا هو اسمـــه .
بتـــرو
المهــرج : وله اسم . عاشت الأسامي .
تساوينا والحمد لله .
ست الحسن : بهذا الاسم - بترو - وجدتهم ينادونه .
المهــــرج : أيـــن ؟
ست الحسن : على شاطىء في بحر البلطيــق .
المهرج : هل استولى عليه الأوربيون مصدراً بديلاً للطاقـة ؟
ست الحسن : طاقية الأخفاء ؟ كان حاسر الرأس حافياً .
المهــــرج : الطاقــة !

الطاقة البترولية يا ست الحسن .
الطاقة البترولية التي تجف وتبقى المستنقعـات .
الليموزينـات والمستنقعـات .
بعد أن ملأوا معاصم نسائهم بالأساور الدبابات ، أخذوا
يشترون الدبابات . الدبابات للمحافظة على المستنقعات .
هل سيلاحقوننا على الحمير بعد أن جففوا البترول ؟
ألا يكفوا شرهـم عنـا ؟
بعد البترو دولارز حميـر و دولارز ؟ !

ست الحسن : وجدتهم يعرضونه على المصطافين في الشمال .
كانوا يركبونـه . كل راكب الدقيقة بشلن .
فبكيـت .

المهـرج : بكيـت ؟

ست الحسن : مظلوم . ركبـوه في كل مكـان .
أصلـه من الشرق وهم أوربيون .
وطنـه في الشرق ويجب أن يعود إلى وطنـه .
بـترو المسكيـن . .

المهرج : حصل تعارف ؟

ست الحسن : قلت إذا كانوا يركبونـه فلماذا لا أركبـه ؟

المهـرج : واللقـاء ؟

ست الحسن : رفع قائمتيه الأماميتيـن

المهرج : بـترو . . . !

ست الحسن : مجـرد تحيـة

المهرج : سـت الحسـن . . !

ست الحسن : عيـب . .

المهرج : فكيف انطلقتمـا ؟

ست الحسن : راكبـاً ومركوبـاً .

امتطيته فاستراحت ضمائرهم المعذبة .

المهرج : ضمائرهـــم ؟

ست الحسن : ضمير أوربـا النقـي .
أورو ضميـر !
إذا تلطخ وعذبهم غسلوه بالدموع وبالدماء حتى يطهر .

المهرج : بالدمـوع وبالدمـاء ؟

ست الحسن : بدموعهم وبدماء الشعوب الأخـرى .
أورو حمـــير . .

المهـــرج : فكيف سمحوا له بالدخول إلى وطن الآباء والأجداد ؟

ست الحسن : خيّروه بين أمرين لا ثالث لهمـا .
إما أن يثبـت أنـه مخصـي . .

المهـــرج : تقصدين محصـــي .
محصي يا ست الحسن .

ست الحسن : لا . مخصي هذه المرة .
خ خ خ . مخصـــي .

المهـــرج : كلنا مخصـــي . وكلنا مسؤول عن بيضاتـــه .

ست الحسن : أو يبرز شهادة يثبت بها أن أمه كانت هنا من قبل ألفي عام .

المهـــرج : ماذا كانت تفعل هنـا ؟

ست الحسن : جاهـل ! حمـــار !
كلكم حمـار !

المهـــرج : بدأنـــا . . ؟

ست الحسن : لو لم تكونوا حميراً لاضطر حماري إلى خلع جلده .

المهـــرج : تأدبـــي !

ست الحسن : لا تلوموا حمـــاري

وإذا بالمرأة تجهش بالبكاء وتولول .

المهـــرج : والآن ! ما يبكيـك يا ست الحسن ؟

ست الحسن : الجليـــــل .

المهــــرج : مالــه ؟ كفى الشــر ؟

ست الحسن : بترو يرفض أن يستوطن في مكان آخـــر .

إما الجليل أو الموت الزؤام .

يحــيَ الســـلام ! يحــيَ الســلام !

المهرج : ولا في القرية التي تمشي على أربــع ؟

ست الحسن : الجليـــل لا الخليـــل !

يحــيَ السلام ! يحــيَ الســلام !

المهــرج : حلو . حلــو .

ولكن ، ما شأن الاستيطان بالســـلام ؟

ست الحسن : السلام على الجليـــل !

المهــــرج : وأهل الجليل ورحمة الله وبركاتـــه .

ولكـــن . . ؟

ست الحسن : لكـــن أو ما لكن . بترو محــب للسلام .

المهــرج : ســـــلام ؟ !

ست الحسن : سلام أو لا سلام . بترو مبدئــي

المهــــرج : مبدئـــي ؟ !

ست الحسن : مبدئي أو لا مبدئي . بترو ليس من غوش أيمونيم .

المهــــرج : أيضـــاً ! ؟

ست الحسن : بترو يرفض أن يرعـى خارج الخط الأخضر ولـن يأكل عليقه إلا في الزريبة .

الجليـــــل لا الخليـــل !

يحــيَ الســـلام ! يحــيَ الســـلام !

المهــــرج : زريبــة يا بنــت الغريبــة !

فلماذا كنت تبكيـــن ؟

ست الحسن : التهويـــد !

المهرج : مالـــه ؟ كفـــى الشــر !

ست الحسن : يقولون أنهم يريدون تهويد الجليل لا تحميره .
المهــــرج : يلعن الحميــر وسيرتــها !
ست الحسن : يا عــدو الســلام !
المهــــرج : مــن ؟ أنــا ؟
ست الحسن : بربري ! برابرة ! فاشســت !
المهــــرج : مــن ؟ نحــن ؟
ست الحسن : يا عدو الإنسانية والمدنية والعالم الحــر !
يا عدو الديمقراطية وأمرهم شورى بينهم !
المهــــرج : واحــــدة واحــــدة .
ست الحسن : كلــــه !
يا عدو البساتين والزهور والرياض والحدائق الشعبية وبارك كنــدا
وبارك تشرشل
وبارك ترومــان
وبارك سوموزا وبارك فرموزا !
المهرج : هدّي على بغلتـك !
ست الحسن : يا قاتل الأطفال والنساء الحوامــل !
لا حمــــاري !
المهــــرج : لا حمــــاري ؟
ست الحسن : لا حمــــاري !
المهرج : نحن أولاد عــم يا ست الحسن !
ست الحسن : لا حمــــاري !
لا حمــــاري أحمــر .
أحمــــر حماري ! ماري . ري . ييييــي

وتنفجر بالصراخ وبالولولة . والمهرج يقف مبهوتاً . وأما نحن فنقعِـد على مثل حالــه .

وتقفز ست الحسن فإذا هي فوق ظهر حمارها تشرع في يدها عصاها وتشن الغارة على المهرج وهي ترغي وتزبـد و تنشـد :

« حمــاري كان دلال المنايـا
فخـاض غمارهـا وشرى وباعـا
وسيفـي كان في الهيجـا طبيباً
يداوي رأس من يشـكو الصداعـا » .

وتنحـر المهـرج بعصاهـا وهي تصيح :

« الفاشوش ! الفاشوش !
يا لثارات العروش !
رؤوسهم داويتها واعجازهم ثبتها على العروش .
سيـف . فليشـرع .
الآن ، الآن ، وليس غـدا
أجـراس العـودة فلتقـرع !
يا لثارات بحر البلطيق ! يا لثارات الرومان والإغريق ! . انهـق ،
يا حمــاري ، فقد حمّ النهيق ! »

وتحول عصاها نحو الحمار نفسه . تارة تهمزه في مؤخرته وتارة تضربه على رأسه حتى يشرع في النهيق الحقيقي . فتعود إلى شن الغارة على المهرج بمزيد من الحماس وهي تصيح متفائلة : « لقد نهق ! متحمـس ! سعيـد !

فيتحاشاها المهرج ويراوغها وهو يستعطفها أن تترفق بالحمار ويقول :

« ترفقي بالحمار ! الحمار حمارك ! الحمار ينهق من شدة الوجع ! »

فتجيبـه ، وهي تصول وتجول :

« تموت الحمير ويحي الوطن ! تموت الحمير ويحي الاسطبل ! تموت الحمير وتحي الزريبة ! تموت الحمير وتحي الزريبة ! »

وتغيب عن أنظارنا وهي تردد هذا الشعار المثير حتى يتلاشى .

-٣-

جريدة من الوطاويط تصيت :
وط . وط . يـــوط . يـــوط !

وفيما نكون بين معجب ولائم ، ومصفق وواجم ، إذا بالمهرج يعود إلينـا وهو يصلح هندامـه ويتنهد ثم يقول :

« كلنـا فـي الهـم شـــرق .
كلنـا فـي الصبـر شـــرق
كلنـا فـي الصبـر حمـار .
عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
وأورثوا الدين تقليداً كما وجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا
ولا يبالون ـ من غيّ ـ لمن سجدوا * »

«اقرأوا الدين دَيْناً حتى تمضي هذه الليلة علينـا بسـلام . الأبيات لأبـي العلاء . وتخطئون إن حسبتم أنهم دسوا السم في طعام شاعرنا الفيلسوف بجريرتها . فالسماء لا تدس السم للمستظلين بها بل تظللهم . حاشا أن

---

* من لزوميـات المعري .

يقتله صاحب الدين بل قتله أصحاب الديْن . أولئك الذين دعا الناس إلى
أن لا يسجدوا لهم .

لا ، يا ست الحسن ، لست لا حماري . فكلنا عبيد الله . وأنا أُجِلُّ الحمار
عن أن أطالبه بما أطالب به ذوي العقل واليد واللسان .
خصوصاً وأن حمارك ، يا ست الحسن ، لا يرى حوله سوى الصابرين
والصابرات » .

وإذا ببدور أم بـدر ، بدور ذات الجمال الخريفي ، تعود إلى المهرج تهرول وإمارات الاستياء بادية على وجهها . وتتقدم نحوه معنفة وتقول :

« هنـاك من لم يصبر ، يا ابن عمي !
أتغمط بدراً نفاذ صبره ؟
إن بدراً لم يصبر يا ابـن غمرة .
ولا بـدران . ولا بدرية . ولا بيـدر ! »

فيجيبها المهرج :

« بدر قتله الصبـر ، يا بـدور .
الصبـر الموروث . الزمـن الضائع .
ألم تسألي نفسـك ، يومـاً ، لماذا اخترنـا كلمـة الجلالـة كي نغدقهـا على
أصحاب الجلالة ؟
فآباؤنا لم يروا من الجلال ، ولم يبهرهم ، سوى جلال الدابة ـ البردعة .
جلل الإجـلاء بها ظهور دوابهم حتى لا تتأذى أعجازهم الرخوة .
فهل أصبح أصحاب الجلالة أصحاب جلالة لأننا أركبناهم على الأجلال ؟
على البرادع ؟ »

بدور : بدر قتله نفاذ الصبر من هذا الأمـر .

المهرج : بدر بريء . بدر بطـل .

بدر القتيل يـا أم بـدر .
فلماذا أنتم ساجدون للاعجـاز المستجلـة ؟

بـدور : حاجـــة . .
المهرج : فأية حاجة دفعتكم إلى أن تبردعوا دوابكم ؟
بدور : في بلاد العـور أعـور عينـك .
المهـرج : عراة من وطـن ومن علــم
وسروجهـــم من ذهـــب ؟
بـدور : كل حـزب بما لديهـم فرحـــون*
المهـرج : صـدق اللــه العظيـم .
فلمـاذا نلـوم المجــوس ؟
بدور : المجـــوس ؟
المهـرج : كلام عاشقين ، يا بدور ، لا يفهمه سوانا .
بـدور : عشقنـا ممنـــوع
المهرج : العشـق ممنـــوع .
بـدور : ما شـأن المجـــوس ؟
المهرج : رحم الله أبـا العـلاء المعـري ، شاعرنـا الفيلسـوف . مات مسموماً لأنه قال ، فيما قال ، ما سوف أحرفه كي لا أموت مسموماً :

هفـت الحنيفـة والنصــارى ما اهتدوا
ويهـــود حارت والمجـوس مضلله
اثنــان أهــل الأرض : ذو عقــل بلا
صبــر وآخــر صابـر لا عقــل له !

فلماذا نلوم المجوس ؟
هل فهمتم ؟

---

* آيـة قرآنيـة .

ويحرجنا كلامه . ويكون بيننا مثقفون قرأوا لزوميات المعري ، في لزوم ما لا يلزم . فأدركوا التحريف الذي أجراه المهرج على البيتين اللذين استشهد بهما ، حتى لا يستشهد . فنسمعهم يهمهمون في فزع : « لا لزوم لهذا الشعر ! لا لزوم ! لا لزوم ! » .

فيبتسم المهرج ويعيد علينا سؤاله :

« هل فهمتم أم أشرح ؟ أجيبوا ؟ »

فيطبق صمت . فلا يكف المهرج عنّا . ويقول :

« الذين لم يفهموا معذورون
والذين فهموا أصابهم الذعر الثقافي » .

بدور : الذعر الثقافي ؟

المهرج : ذعر الانسان المثقف من أعباء ثقافته .
لقد تفشى هذا المرض في الشرق حتى أذاقنا الانفصام والموت الزؤام .
ذعر الانسان المثقف من علمه بأنه إنسان .
فيعروه الخوف من الناس الآخرين أن يكتشفوا أنه ليس دابة .
فيدب على أربع إمعاناً في صون السر

صوت من القاعة : على رسلك ، يا ابن غمرة !
تكتك ـ تكتك !

المهرج : اطمئنوا ، أيها المثقفون .
لن أكشف سركم .
لن أعرض حياتكم للامتحان الأخير الذي امتحن به فيلسوف المعرّة :
اطمئنوا يا أحفاد جاليليو وأبي الطيب وأبي محفوظ .

أصبح الصبــر في شرقنـا دينـاً .
وهذا هو دَيْنُكُـمْ عليّ .
اصبـــروا !
اصبروا حتى تمـر هـذه الغمامـة .
سحابـــة صيـــف !
اصبـروا حتى الصيــف القــادم
ستستركم سحابـة صـيف أخـــرى .
فحتى الصـــيف الــذي بعـده
وبعــده . وبعــده . وبعـــده .

الصوت : تكتــك ! تكتــك !

بدور : أكلتـــه التكتكـــة

المهـرج : اطمئنـوا يــا أولادي .
تكتكنـا وسنظل نتكتك حتى تقوم الساعـة !
ها أنا أنكبّ على وجهي وأدب على أربع ، تكتكـة
حتى تطمئنـــوا إلـــيّ . .

وإذا به يهبط على أربع ثم يحبو على أربع . وهو يهز مقدمته ومؤخرته فنسمع أصوات الأجراس والحوافر . تلك ترن وهذه تخرخش .

وفيما نكون مبهورين بهذا التغير المفاجىء في وضع المهرج ، إذا بجريدة من الوطاويط ـ آدميين في أسمال سوداء وقد تقنعوا برؤوس وطواطية ، فيندفعون نحو المهرج وهم يصيتون : « وط . وط . يوط . يوط » . ويتكالبون عليه . يمتطون ظهره ويشدون أذنيه ويوقعونه أرضاً .

وتحاول بدور أن تفرقهم عنه . وتكون ، في هذه الأثناء ، تصرخ وتولول :

« الوطاويط ! الوطاويط !
ألا تعرف الوطاويط حدوداً ؟
ألا تفتح الحدود إلا للوطاويط ؟ !

الوطاويط ! الوطاويط !
لعن اللـه التكتكـة ! »

فيستعيد المهرج رباطة جأشه . فينتفض منتصباً على قدميه ، مبعثراً الوطاويط من كل جانب كأنه جوليفر في بلاد الأقزام . . ونسمعه يصرخ من سويداء قلبه :

« قامت الساعة ! أنا الساعـة !
أضيئوا الحقيقـة !
اشعلـوا الانسـان !
أطلقـوا السجيـة !
انطلقـــوا !
الجـــدع جـــدع
والجبـــان جبـــان »

وتسلط علينا مصابيح كشافة ترسل أضواءها الساطعة على أشباح عفريتية . فتكبر الأشباح وتكبر حتى تتلاشى .

ويكون المهرج يغني « الجدع جدع والجبان جبان » ونحن نصحبه في نشيده منشدين ومصفقين : النشيد على إيقاع التصفيق والتصفيق على إيقاع النشيد .

« الجـــدع جـــدع
والجبـــان جبـــان »

فتختفـي الوطاويـط .

- ٤ -

ستة عشر لوسيًا ولويس عوض

ويشرع المهرج في نفض التراب عن ثيابه . ويجمع ما تناثر على الأرض من متاعه . ويسوي هندامه . ونحن في عجب من حاله : هل هو الجبان أم هو الجدع ؟

ونحن ؟

فلا يتركنا مذبذبين بين ذلك طويلاً . بل نراه يكف ، فجأة ، عمّا شرع فيه . ويجلس على مقعد الصندوق فجأة . ويأخذ فجأة في البكاء المسموع بلا تحرج منا أو استحياء .

فتهمّ بدور به وهي مهمومة . وتجلس في محاذاته . وتطوقه بذراعها وهي تحاول أن تسري عنه . ونسمعها تلح عليه بالسؤال :

« تبكي ، يا حنين الصبا ؟
تبكي - يا أمل ؟
حتى حين أكرهوك على الركوع ، لم تركع إلا زحفاً نحو الأسلاك الشائكة لتخترقها .

رأينا خيالك منتصباً .
كانت له عينان شاخصتان .
تبحثان عنا في عتاب .
تبحثان في أمل .
جذور موغلة في التربة .
شجرة طيبة .
أصلها ثابت وفرعها في السماء .
جذلة سليب أورقت وبسقت تحدياً .
وحين دفعونا من الخلف ، لنقع على وجوهنا ، سمّرنا خيالك الفارع وأخجلنا :
عيب يا بدر ! عيب يا بدرية !
والآن ، الآن ، ما يبكيك يا حنين الصبا ؟
الوطاويط ؟
الزمن المضيع ؟ »

فيجيبها المهرج :

« أبكي على الأعمار المضيعة .
أبكي على حالي .
أبكي على الثكلى . أبكي على الأرمل .
أبكي على بدر ، يا بدور » .

بدور : بدر جدع . بدر ابن أبيه .
بدر ابنك .
بدر لم تفترسه الوطاويط

المهرج : الوطاويط لا تفترس بدراً .
مضت إلى غير رجعة أيام الحوت الذي كان يلتهم البدر .
لم يتركوا لبدر مكاناً يتذبذب فيه ويتكتك .
بدر غير مخيرّ

بدور : بدر فارس . بدر اختار الشهادة .
المهرج : فإذا لم يخترها ، هل يعيش ؟
بدور : أين يعيش ؟ كيف يعيش ؟

وإذا بالمهرج ينتفض واقفاً ويأخذ في الصراخ كمن به مس :

« تبّاً لك يا أبا الطيب !
يا دجّال نبي الدجالين .
يا قرمطي مرتد ، مارق . ميكافيلي !
قال :

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هُوَ أول وهي المحل الثاني

طز . . .
طز كبيرة ولو مرة واحدة في العمر !
طز حقيقية بلا تشخيص .
بلا تشخيص ؟
يا لله . . . بلا تشخيص في تشخيص .
تكتك . .
بدور ! بدور ! . »

بدور : سلامتك يا ابن عمي
المهرج : متى نكون نشخص ومتى ننطلق على سجيتنا ؟
بدور : اعتصم بالصبر ، يا ابن عمي
المهرج : بدور !
متى كانت عصمتنا في أيدينا ؟
بدور : ستكون يا ابن عمي .
المهرج : بدور !
أتعلمين لماذا أحجم أجدادنا عن تعاطي الفن المسرحي ؟
عن التشخيص ؟

بدور : قالوا أصحاب الدين ـ يا ربـي ـ الدّيْن .

المهرج : بل لأنهم ارتدوا ثياب المسرح طول حياتهم .
عاشـوا مشخصيـن .
ظهروا أمام السادة بأقنعـة التشخيص .
فبأي شكل يظهرون على المسرح ؟

بدور : ستربتيز . عـراة !

المهرج : حين عروهم تقرمطـوا ، يا بدور .
عاشـوا عـراة .
قلبـوا الأرض عـراة .
قبّلـوا جراحهـم العاريـة .
غطسوا وراء اللؤلؤ عـراة .
ناموا عراة إلا من أحلامهـم .
ثاروا عراة إلا من هاماتهـم .
أكلوا الصخـر العـاري .
ولكنهم حافظوا على قاماتهـم منتصبة .
هاماتهم شامخـة .
ناسـاً . بشـراً ـ بني آدم !
صُلبـوا منتصبي القامة ، عـراة .
منتصبـي القامة ، عـراة .
عاليـن !
فاعترى الصالين الفزع . فملأوا الوديان بالصلبان ورؤوس الجبال .
حتى إذا جاء الصليبيون بالصليب وجدوا هذه النبتة
أصبحت حـرة في بلادنـا .
بريـة في بلادنـا .
عليقاً منتشراً في الجبـال والوديـان .
عراقيـل أمـام تقدم الدبـابات .

أسـلاك شائكـة مكهربـة .
أحراش كثيفـة تحتضن الثـوار
تستـر الثـوار
غابـات من الهامـات .
فغرقوا في وادي الصليب . غرقوا في وادي الصليب .
خفف الوطـأ وتنفـس الصعـداء !
الأرض أضرحـــة
والهـواء أضرحـة .
أضرحـة لا تُنبش
النسمة آثارنـا . فتنفـس الصعـداء .
شهيـق . زفيـر .
شهيـق زفيـر .
أولئك آبائـي . أجـدادي .
علـو في الحياة وفي الممـات .
لا احدى المعجـزات ولا معجـزة .
لا اختيـار !
جئنـا بشـراً ونمضـي بشـراً .
لم نخـير .
وإذا خيرنـا ، هل نختـار ، أن نولد خنازير ؟ !

بدور : خذنـي معـك . أعود إليك .
لـن أتركـك .
خذنـي معـك !

المهـرج : إلا ذلك القرمطـي المرتـد .
المـارق . الجبـان . المدلل !
قال : الرأي قبل شجاعة الشجعان ،
فإذا هما اجتمعا بنفس حـرة
بلغت من الدنيا أعز مكان . .

طــز . . . !
وطلاب أي مكان ، مكان تحت الشمس ؟
نفوس حرة لا يجتمع بها سوى القهر والغربة ، الغربة في كل مكان !
هنــود القرن العشريـن الحمـــر
يا لذوي القربـــى !
إلى أيــن يرتّــدون ؟

بدور : « طلـــع بــدر . .
أورق بـــــدر . .
اكتمـــل بــدر . . »

المهرج : إلى أين ترتـد الكشرة المسحوقـة ؟
كيــف تتكتك ؟
حتى اللبوات الأسيرة في السرك تتكتـك .
توفر لحم مدربها فيطعمهـا جيفــة .
أما لبواتنا الحبيسة فلا مكان لها حتى ولا في السرك !
يا لذوي القربى وأبناء عمهم ! .
هل أبقوا لها من طعـام سوى لحومهم ؟
إلى أين ترتد الكثرة المسحوقة ؟

بدور : وا بدراه ! يا ولـداه !
قم بـــدر .
اطلع بـــدراً
انطــق صخــراً
حــرك ضميــراً
أتسمعه يا نجيـب محفــوظ ؟
يا مرتـد إلى أرذل العمــر ،
إلى ما بين القصريــن ؟

المهرج : إلى أين يرتد الذين إما أن يعيشوا وإما أن لا يعيشوا ؟

بدور : غـرد بــدر .

اطلــع بــدراً .

انطــق ضخــراً .

حــرك ضميــراً .

أتسمعه يا توفيـق الحكيــم ؟

أيها العصفور المقعد في مزبلة شرقيــة .

المهرج : « إلى أيــن ؟ إلى أيـــن ؟

بدور : « إزأر بـــدر .

اطلــع بـدراً .

انطــق صخــراً .

حــرك ضميــراً .

أتسمعه يا لويس عـوض ؟ يا فيلسوف الخوف ؟

مــاذا تقــول ؟

صوت : أقول : إن نجيب محفوظ خائف . وهذا ليس رأيه .

ولكنه كتوفيق الحكيم ، يحمي نفسه من عدوان الدولة كي

يمنحنا فنــاً جميــلاً*

بدور : طبقات من الزهور الاصطناعيــة

فوق أضرحــة من الرخـــام .

إن ضريح بـدر دائم الخضــرة .

المهرج : والمسحوقــون ! الكثــرة .

كيـف ينقذهـم الخـوف ؟

الفنانون الذين يمنحوننا المسكن ، يشيدونـه حجراً حجـراً ،

ويحطبــون الصخــر ،

الفنانون الذين يمنحونـــا الغـذاء

---

* لويس عوض في صحيفة « السياسة » الكويتية عدد ٤/ ٣/ ١٩٧٩ .

ويجوعـــون .
يمنحوننـا الكســـاء
ويعــرون !
ماذا ينفعهم الخـوف من عدوان الدولـة ؟

بدور : ألم يكفك ، يا لويـس ، ستة عشـر لويسـاً ؟

المهـرج : مسلـوب اللقمـة ، الجائـع ،
يرى أطفالـه يموتـون جوعـاً . .
يمضي الوقت بين الرأي والشجاعـة حتى يمـوت الطفـل الأول ؟
أو ينتظـر حتى يموت الطفل الثانـي ؟
أو ينتظر حتى يموت الطفل الثالـث ؟
أو ينتظر حتى يموتوا جميعـاً ؟ !

بدور : الفن جميـل . . (وتلفظهاباالجيم المصرية) .

المهرج : ومسلـوب الأرض والوطـن !
هل يقعد في الفسحة بين الرأي والشجاعة حتى تضع الحرب الصليبيـة أوزارهـا ،
ويستيقظ الضميـر ؟!

بدور : خازوق . خازوق .

المهـرج : والمحمول على الأسنة إلى الارجوحـة !
على بساط أرجواني يتأرجح بين الرأي والشجاعة ؟
إلى أيـن يتراجـع ؟
إلى أيـن ؟ إلى أيـن ؟

- ٥ -

بــدر ! ... كلهم ولدي بــدر !

وإذا بموسيقا كنيسية غيبية تندفع مثل موجـة هادرة حتى تغرقنا في بحر من الغيبوبة . موجة تعطرت برائحة البخور . ويكونون قد أحرقـوه فتضوعـت رائحته المغيّبـة .

وإذا بحبال تدلى من سقف المسرح . كل حبل وفي نهايته أنشوطة . وهي أشبه بحبال المشانق .

وتهرع بدور إلى المهرج وهي مشفقة عليه . ونسمعها تهمس في أذنه حتى نسمعها :

« حبال المشانق ؟ حبـال المشانـق ؟
هنـــــاك !
وهنا أيضـــاً ؟ ! »

المهرج : رموز ، يا بدور . مجرد رمـــز .
تتعدد الأسباب والموت واحـــد .
حيرنـــي أمـــري .
فأي الرمـــوز أختـــار ؟

بدور : المقصلـــــة !

المهـــرج : الشرق شرق والغرب غرب
ولم نبلغ ، بعد ، هذا الشأو في المدينة
بـــدور : الصّـــلب !
المهــرج : منذ افغانستان أصبحت حروبهم هلاليــة !
حيرنـــي أمرهـــم .
بـــدور : الخـــازوق !
المهــرج : لم يعد الخازوق رمــزاً ، يـا بـدور .
أصبح الخازوق حياتنـا اليوميــة .
بـــدور : والبلطـــة ؟
المهــرج : تتنافى والمدنيـــة . .
والضميـر الأعمـــى .
مــوت مكشــوف !
ولكنهم لا يتعاطون الموت المكشوف
بـدور : فكيف تقتلــون ؟
المهـــرج : اختناقـــاً . .
ملايين العناكب تنسج خيوطها حول رقابنا وأفواهنا وأنوفنا .
يصبــح التمـــطي تهديمـاً .
والتنفس استهانة بجمعيات الرفق بالحيوان .
تلتهمنا الأكاذيب . تفري لحومنا عن عظامنا .
وأما الصحف الحـرة فتسلق هذه العظام حســاء .
وحين تكون الدبابة في حالـة الدفـاع عن نفسهـا من حصـا الأطفال . .
نقتل رميـاً بالرصـاص !
وقُتلنـا ، أيضـاً ، لمجرد سوء فهم . .
بدور : حسبتهـم ألغوا عقوبـة الإعـدام .
رجالكم الانسانيين ـ الواحـة !
المهرج : وجدوها تثقل على ضمير المحكمــة .

اغمضوا عيني الضمير ونفذوها خارج القاعـة .
حتى يظل ضمير القاتل نقيـاً .
القاتل ذو الضميـر النقـي !!
أرقى مستحدثـات المدنية في القرن العشرين .
أرقـى من الخيوط الاصطنـاعية ومـن البلاسـتيك ومـن الكومبيوتر .
روبـوث ! روبـوث !

بدور : ولكنهـم يقتلوننـا . .

المهرج : خـارج القاعــة . .
إن لهم في أرضكم الواسعة متسعاً لهذا الأمر .
النهـر طويـل . والكمائن على الجانبيـن .
أقبيـة السجـن معتمــة .
والسجـان دولــة .
السجــان بروفســور .
السجــان مقتنــع .
السجــان مرتـاح الضميــر .
الرصاصات الطائشة تصيب أهدافهـا .
فيحشدون لجــان التحقيق .
ويعتــذرون . .
يظل الضمير البلاستيـك نقيـاً .
يحنـو علـى أطفالـه
ويحمل إلى زوجتــه طاقة زهــور .
ويتـذوق الموسيقـى .
ويناقشـك فـي السبرنتيــك
ويدافع عـن بيكوفسكــي .
أنزلوها عــن ضمير أوربا ، يا بدور .

وأنزلوها بكم بقانون غير مكتوب ، بقانون محفوظ على ظهر قلب ،

اسمه الحرب هي الحرب !

بدور : حرب ؟ !

فتنطلق أصوات جوقة من الصبايا . صرخات حادة كأنها أصوات العروس والأخوات يزغردن ، معاً ، لعودة الفارس قتيلاً :

« احصدوهم !
احصدوهم !
احصدوا ! »

ويأتينا صوت المهرج وهو ينادي :

« عبد الله بن عبد الله ، أبا عبد الله !
يا عبد الله ! » .

فيقبل عليه شاب في ربيع العمر ، مشرق الوجه إشراقة فجر ربيعي على صخور شاطىء في بلادنا . ويبدو عارياً إلا من ثوب مزند أحمر خفيف الحمرة ، ضيق حتى يلتصق بجسمه يشدُّ على تقاطيعه ومفاصله وكأنه عارٍ وقد ولد بهذا الثوب أو أنهم أهملوا غسله في ساعة الميلاد أو أنه قد ولد من جديد ويكون الشاب يهتف :

« لبيك ، يا عماه . لبيك . لبيك » .

المهرج : أقبلت ، يا بني ، وأقبلت ساعة الحقيقة .

فتصرخ بدور :

« بدر ؟ ! بدراه ! ولدي بدر ! »

المهرج : كلهم بدر ، يا بدور . .

بدور : ولدي . .

المهرج : كلهم أولادك يا بدور .

تعالـي نخلي لـه الساحـة .
دعيـه يتكلم ، هـو نفسـه !
تكلـم بـدر !

الشاب : لبيك ، يا عماه . لبيك . لبيـك .

فيلتقط المهرج صنجيه . ويصفق بهما ثلاثاً وينادي :

« اطفي النور . أطفي النـور .
الدور ، الآن ، علـى مسـرور .
السّياف مسـرور ! »

فيعم الظلام . فنسمع ضحكاً ، أشبه بهـدير الإبـل ، وجلبـة . ويأتينـا صوت المهرج وهو يقول :

« مسرور السّياف جداً . مسرور جـداً ! » .

وتتسلل ، من كوة في طرف المسرح ، حزمة ضوء فتنجلي الجلبة عن رجل سيّاف بسيفه المشرع . ولولا سيفه والنطع الذي يحمله في اليد الأخرى ما كان من الممكن أن نعرف هذه المهنة التي يمتهنها . خصوصاً وأننا كنـا علمنـا أن مسروراً الأسطوري منهمك الآن في تعشيب الرياض .

فلباسه لا يطابق دوره في شيء : لباس السهرة الأوربي الرسمي الأسـود وقبعة سوداء مربعة الأطراف يعتمرها فوق رأسه . وأما الحذاء فأسود شديد اللمعان . إن هذا السّياف ـ يا للروعة ـ خريج جامعي ولا يفوتنا ، بالطبع ، هذا التخريج .

ويكون السّياف ، الخريج الجامعي ، يلاعب سيفه ويفرش على الأرض ، باليد الأخرى ، النطع المخضب بالدماء .

كيف يكون النطع ؟
هل فرشوه فوق شمس الرياض ؟

سمعنا عن العباءة التي أرادوا أن يخفوا بها عين الشمس . ورأينا ، على الشاشتين ، بساط الريح والبساط الأحمر الذي يفرشونه تحت أقدام ملوك وأمراء وشيوخ ورؤساء . وفي بيوتنا تعشينا على الحصير ونمنا على الحصير . والنفس الحرة ، كما تعلمون ، تنام على البُرش ولا تتأرجح إلا على الارجوحة الحمراء . وذلك لأنها لم تخلق لكي تمنحنا « الفن الجميل » . خلقت ، يا للهول ، لمجرد أن تعيش !

فأياً منها اختاروا نطعاً مخضباً بالدماء : العباءة التي لم تخف عين الشمس ، بساط الريح ، البساط الأحمر ، الحصير أو البرش ؟

لا هذا ولا ذاك مما ذكرنا . بل اختاروا ، نطعاً ، خرقة قديمة بالية وَهَلَّة ، خرقة من الخيش ، اخترقتها فتحات الزمن في وسطها وفي أطرافها . خرقة حمراء متراكمة الحمرة ، طبقات طبقات . ولولا أنها ترمز إلى النطع لحسبنا أنها خرقة ممسحة أحضرها أحدهم من بيت جدته .

على رسلكم ! لماذا سموا الجدة جدة ؟ ألأنها تظل تمسح ، بالممسحة ، الأرض والجدران ومتاع البيت حتى تعود إلى البيت جدته ؟ فلماذا ، إذا كان هذا التأويل صحيحاً ، لم يسموا الزوجة جدة والبنت والعمة والأرمل ؟

ما لنا !

أما السيّاف ، السموكن ، فبعد أن يكون قد نحر المهرج وبدوراً فانتحيا مكاناً قصياً ، نراه يفرش النطع الخرقة بينه وبين الشاب الربيعي حتى يقفا عليه وجهاً لوجه .

ويجري بينهما هذا الحوار :

السيّاف : اسمك ؟

الشاب : ربيع .

السّياف : اسمك الذي ولدت بـه ؟

الشـاب : ولدت بلا اســم

السّياف : اسمـك الحركـي ؟

الشـاب : شعـب

السّياف : اسمك كلـب !

الشـاب : حق التسميـة للوالديـن .

السّياف : أنت كلـب !

الشاب : لم أختـر هويـتي .
وإذا اخترتها ما غيّـرت .

السّياف : إمشِ على أربـع يا كلـب !

الشاب : لم تعودنـي أمـي .

السّياف : اعـوِ عـواء الكلـب !

الشاب : حتى ولا الأنيـن !

السّياف : تلوح عليـك إمارات العلـم

الشاب : لا أجهلـك .

السّياف : وأنـا عالـم

الشاب : ما أجهلـك !

السّياف : بيدي أن أركعـك

الشاب : أقـوم وأقـف .

السيّاف سأوجعك . اقتلع أظافرك .

الشاب : قـد فعلـت . .

السّياف : الرأي يا بنـي . .

الشاب : لسـت ابنـك .

السّياف : الرأي قبل شجاعة الشجعـان .

الشاب : الشجاعـة رأيي .

السّياف : صغير أنت . لم تدمن ، بعد ، على لذة الحياة يا ربيع .

الشاب : ولا علـى المذلـة .

السيّاف : لنتفـــاوض .

الشاب : النطـــع ليس للمفاوضة . سيّاف ومسيّف .

السيّاف : هل من بديـــل ؟

الشاب : اطـــو النطـــع واغمـــد السيف !

السيّاف : وسيـــفي ؟

الشاب : نصـــكه محراثـــاً .

السيّاف : ودبابتـــي ؟

الشاب : نرجعـــها تركتـــوراً

السيّاف : وطائرتـــــي ؟

الشاب : نرش بها المبيـــدات .

السيّاف : وأمريكـــــي ؟

الشاب : ننكحـــه سويـــة .

السيّاف : شيوعـــي !

الشاب : كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً* !

السيّاف : شيـــعي !

الشاب : عجبت لمن لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج إلى الناس شاهـــراً سيفـــه !*

السيّاف : عميـــــل !

الشاب : عامـــل !

السيّاف : موسكـــو !

الشاب : لم نعـــد لوحدنا

السيّاف : ألا تحـــب الحيـــاة ؟

الشاب : حـــتى المـــوت !

السيّاف : ما أهون الموت عليكم !

---

* من أقوال عمر بن الخطاب المأثورة .

الشاب : ما أهون القتل عليك !
السّياف : مخرب !
الشاب : أحب أمي وأحب حبيبتي وأحب الشعر .
السّياف : ورثت النقمة !
الشاب : ورثت رائحة البحر
السّياف : غيره ؟
الشاب : وحكايات أبي .
السّياف : مخرب ! ماذا تريد ؟
الشاب : أتوق إلى الطمأنينة .
السّياف : غيره ؟
الشاب . وحديقة
السّياف : وغيره ؟
الشاب : والنوم على هدير الموج
وزخ المطر
لا على زخ القنابل
السّياف : مخرب ! ماذا يعشش في رأسك المحموم ؟
الشاب : أن أعيش في وطني .
أن أكون كغيري من خلق الله .
أن لا يقولوا عني : غريب ،
مشرد ، لاجيء .
أن لا أتسلل إلى وطني
السّياف : لا تتسلل !
الشاب : جئت كي لا أتسلل !
السّياف : أنت تكرهنا !

---

* من أقوال عليّ بن أبي طالب المأثورة .

الشاب : أنت تكرهنـــا !

السّياف : يتعاظــم كرهكم إيّانـا !

الشاب : يتعاظــم كرهـك إيّانــا !

السّياف : يا قاتل الأطفال . منتقم !

ألم يكن والدك من كفر قاســم ؟

بـــدور : جريمــة ؟

السّياف : فمن دير ياسيــن ؟

بـــدور : جريمـــة ؟

السّياف : فمن الرملــة ، من اللد ، من يافا .
من صفد ، من عيلبون ، من عيلوط

بـــدور : عــدّ ! عـــدّ ! .

السّياف : كثيــر ! كثيـــر !

إما هو أو والده !

إن لم يكن والدك فجدك . فعمك فابن عمك ! أحدهم ! أحدهم !

ريفانج ! ريفانــج ! ريفانجســـت !

لو كنــا مكانكم . .

الشاب : لن نكون مكانك مهما يحدث من أمــر .

السّياف : أترضى عن قتل الأطفـال ؟

الشاب : أنا الطفل القتيــل . .

السّياف : وأطفالنـــا ؟

الشاب : وأطفالكـــم .

السّياف : أيهــا القتلــة . .

الشاب : أيقتل القتيل مرة ثانيـــة ؟ !

فينفجر السيّاف في قهقهة كأنها القرع على صفائح فارغة . ويكون يردد ، بين القهقهة وأختها :

« بتياستكـم ! بتياستكـم ! . »

-٦-

مـأدبـة شـواء

وتتناسخ القهقهة مع أصوات صادرة عن قرع طبول ، أشبه بالرعد في آذار . ثم تنشق السماء عن بريق يعشي الأبصار فنرى المشخصين يتقونه بأكفهم على عيونهم استكفافاً . ويهتف هاتف في مكبرات الصوت أن :

« غضوا أبصاركم ، يا أهل الموقف ، حتى يعبر الهول الأكبر ! »

فيفعلون .

أما السّياف فيسجد للسيف أمامه . وأما المسيف والمهرج وبدور فيتحاضنون ورؤوسهم خاشعة .

ويعقب البرق ظلام أشد سواداً من حنك الغراب .

فيسود صمت حتى لا نسمع سوى صوت الصمت . ويعم ظلام حتى لا نرى سوى أخيلة الموت .

وإذا بصوت خبطة على المسرح تصدر عن ارتطام جسم انسان يلقى على الأرض من عل . نسمع ونفهم ولكن لا نراه . فخبطة ثانية . فثالثة . وما ان نحصي ثلاثاً حتى يأتينا صوت الخبطة الرابعة . فلا تختلف في شيء عن أخواتها ، لا في صوت ولا في موت .

ويفج النور السماوي .

فنرى ، والدهشة تعقد ألسنتنا ، أربعة شبان متساوي الأعمار ومتشابهي الخلقة والخلقان . ونكون هذه ثياباً بيضاء مرسلة تحرقت أطرافها واكتست بالسخام . ونرى فوق كتفي الشاب منهم جناحي ملك . وتكون أطراف الجناح ، أيضاً ، قد تحرقت واكتست بالسخام .

وينشغل ثلاثة من الملائكة ـ وهم المتقدمون في الارتطام ـ في نفض السخام عن أثوابهم البيضاء وفي تمكين الأجنحة من أكتافهم . ونعلم ، فيما بعد ، أن أسماءهم هي ، بحسب الأولوية في الارتطام : سعدي أبو شارب وسعيد أبو شاربين وسعادة شارب الدم .

وأما رابعهم ، ونعلم فيما بعد أن اسمه سعادية قلب الأسد ، فيكون يحمل سفوداً وينادي :

« ساسليك ! ساسليك ! »

أبو شاربين : كيف لحق هذا بنا إلى هنا ؟

أبو شارب : احرقـوه معنـا خطأ .

شارب الدم : أخ . .

أبو شاربين : يكونون أحرقوه تدبيراً حتى يكون علينا عيناً .

قلب الأسد : ساسليك ! ساسليك !

أبو شارب : على مـاذا ينـادي ؟

أبو شاربين : شاشليك ! ساسليك بلهجة المغرب . يبيـع شواء . لحمـاً مشويـاً .

أبو شارب : أشم رائحة شواء ولا أرى لحمـاً .

قلب الأسد : ساسليك ! ساسليـك !

أبو شارب : ماذا تبيـع ، يا أخ ؟

شارب الدم : أخ ؟ . . أخ !

قلب الأسد : أبيع لحمـاً مشويـاً .

ساسليـك ! ساسليـك !

أبو شارب : لحمك أم لحمنـا ؟

قلب الأسد : على الأرض ما كنت أبيع سوى لحمـي .
وابنتي كانت تبيع لحمـها .
هل تشعـرون بفرق في الرائحـة ؟
ساسليـك ! ساسليك !

شارب الدم : أخ . .

أبو شارب : لكنني لا أرى لحمـاً !

قلب الأسد : لأننا موجودون ، الآن ، فيما وراء الحياة الدنيـا .
روح !
والروح لا ترى بالعيـن المجـردة .
ولحمي روح . روح اللحـم .
وكان من الصعب رؤيتـه ، أيضاً ، على الأرض .
ساسليـك ! ساسليـك !

أبو شارب : لمـاذا أحرقـوك معنـا ؟

شارب الدم : أخ . .

قلب الأسد : كله على العـرب قطيـن . .
أنتم سمـر وأنـا أسمـر .
أنتم للحـرق وأنـا أحتـرق
ساسليـك ! ساسليـك !

أبو شاربين : نحن عائـدون . .

شارب الدم : عائـد ؟ ! أخ . .

قلب الأسد : وأنـا عائـد . .
ساسليـك ! ساسليـك !

أبو شارب : لماذا لم تبق في مسقط رأسـك ؟

شارب الدم : يبقـى ؟ ! أخ . .

قلب الأسد : طردنـي العرب .

أبو شاربين : ونحن طردنا العــرب . .
قلب الأسد : ساسليــك . ساسليــك .
شارب الدم : طردوكــم ؟ ! أخ . .
ابو شارب : اهلك قتلونا . .
قلب الأسد : وانا ايضاً . .
ساسليك . ساسليك .
شارب الدم : أخ . .
أبو شاربين : أهلنا لا يقتلون سوانــا .
قلب الأسد : وأنـا أيضــاً . .
ساسليــك . ساسليــك .
شارب الدم : لا يقتلون سواكم ؟ ! أخ . .
أبو شاربين : ما اسمــك ؟
قلب الأسد : سعاديــة .
أبو شارب : وأنا سعــدي .
أبو شاربين : وأنا سعيــد
شارب الدم : أخ . . !
قلب الأسد : تشرفنا يا أخ .
ساسليــك ؟
شارب الدم : أخ ؟
أخ !
أبو شاربين : كفى أخأخــة يا سعادة
شارب الدم : أَقتله ويسميني أخ ؟ !
وقاحة ! إهانة . قال : أخ !
أخ . . !

فتعرو الدهشة سحابة وجه سعادية قلب الأسد .

أبو شارب : أنت قتلته ، يا سعــادة ؟

يا قتيـل ابـن القتيــل ؟
حتى في الدار الآخـرة تزيّد علينا ؟
طيب ! إذن أنا قتلته !

أبو شاربين : عيني يا عيني ! وأنا ؟
إذا كنت أنت قتلته مرة فأنا قتلته مرتين !

شارب الدم : ثلاثاً ! قتلتــه ثلاثــاً !
بالطـلاق بالثلاثـــة !

وإذا بغمامة الدهشة تعبر عن وجه سعادية ، عبور غمامة صيف . ويصحو وجهه على إمارات الحكمـة فيضـع سبابتـه على صدفـه في حركة أرخميديسية أصيلة ، نحاول ، نحن الجالسين تحت ـ أي في القاعة ـ أن نحاكيه فيها فلا تزيد غباءنا إلا غباوة . فنتكتف صابـرين فيما يكون اقتتـال الاخـوة مستعـر الأوار .

وإذا بسعاديـة يصـرخ :

« القتلـة ! القتلــة !
أغيثوني يا أهـل الموقـف !
قتلتنـي القتلـــة ! »

فتقبل جارية من خدم الجنان تهرول منزعجـة وفي يدها مكنسـة منفضـة تلوح بها .

الجاريــة : أسمع عياطاً وأرى مياطـاً .
ألا تعلمون أن اليوم عطلـة ؟ !

الجميع : عطلـــة ؟ !

الجارية : عيد ميلاد سيدنا إبراهيم عليه السلام .

قلب الأسد : جــــدي إبراهيم !

شارب الدم وأبو شارب : بل جـدنا إبراهيـم !

أبو شاربين : آخ . . !

قلب الأسد : جـــدي . .

أبو شارب : جـد جـــدي . .

شارب الدم : جــد جـد جـدي . .

أبو شاربين : أخ . . !

الجارية : هــوب . . كفـــى !
وأنت ! ماذا يؤخئخك ؟

أبو شاربين : بلغم . بلغم . برم . برم . بق . بق . بضم . بغم .
غم . غم . غــو . غـــو .

الجارية : الله يبعث . . ارجـع غــدا .
غــداً . يا للـــه . .

قلب الأسد : البركة فيك ، يا ست الحسن .
فاقضـي بيننــا يا حلــو . .

فتضحـك الجاريـة وتختـال دلالاً .

الجاريـة : يا حلـــو . .

أبو شارب : أنا أحلـــى . .

أبو شاربين : يمـــين !

شارب الدم : قوميـــة المعركـة !

ويتكثف سعادة وهو مشمئز .

الجارية : معارك ؟ في الـدار الآخرة ؟
وحـــوش !

قلب الأسد : أقضي بيننــا ، يا حلـــو !

الجارية : سلموا سلاحكـم الأبيــض ، أولاً .
ثــم أقضـــي بينكـــم .

اخلـع ! اخلـع ! اخلــع !

أبو شارب : نخلـــع ؟

الجاريـــة : سراويلكـــم !

اخلـــع ! اخلـــع !

فيخلع سعدي أبو شارب سرواله . ويلتفت إلى صاحبه ويقول :

أبو شارب : احتطت للأمر فاتزرت بسروالين .

الجارية : وأنت ! اخلـــع ! اخلـــع !

فيخلع سعيد أبو شاربين سرواله ويلتفت إلى صاحبيه ويقول :

أبو شاربين : احتط للأمر . فأتزرت بثلاثة سراويـــل !

الجارية : وأنـــت ! اخـــلع !

ولكن سعادة شارب الدم يظل متكتفاً ومتعالياً .

الجاريـــة : اخلـع ! اخلـــع !

شارب الدم : لـــن أخلـــع !

الجارية : اخلع أو أخلعه بيدي لا بيدك يا عمرو !

شارب الدم : أي شـــيء أخلـــع ؟

الجارية : سروالـك يـا أخ . .

شارب الدم : السروال المخلوع لا يخلـع .

تحتي عارٍ كما خلقنـي ربـي .

لا يوجد تحت هذا اللباس أي لبـاس .

وسروالـي محفوظ في البيت بالنفتاليـن .

فيغشى على الجارية من شدة الضحك .

الجارية : هل أرى ؟

أتسمح لي أن أتحسسك ؟

أسبـــر قعـرك ؟

وتهم الجارية به وهي تدغدغـــه . فيفلت منها وهو يهمس :

« بالســـر يا أورو . .
خفيـــةً عن أعين الرقبـــاء . .
بالســـر يا أمْأمّ ! »

وتراوده الجارية وهي تصوب مكنستها نحو مؤخرته . فيفـر من أمامهـا . فيدوران في دائرة نصف قطرها عصا المكنسة وذراع الجارية ، بالحد الأدنى . وتلف وتـدور . وهـكذا دواليك وإلى آخـره حتـى يبـدو الإعياء على وجـه الجارية . فتعود إلى سعادية قلب الأسد ويكون يسفّـد بسفوده .

الجارية : ما هذا ، يا حلـــو ؟

قلب الأسد : ســـــفود

الجارية : ســـلاح ؟

قلب الاسد : ولكنه يختلف عن السراويل بأنه غير عدواني . أدافـــع بـــه عن نفســـي .

الجارية : دفاعـــي ، يا حلـــو ؟

قلب الأسد : أشوي بـــه لحماً وأقتات بـــه .
ولنا فيـه ، أنت وأنـا ، مآرب أخرى .
ساسليـــك ، يـا حلـــو ؟

الجارية : هـــات

قلب الأسد : هـــات

الجارية : هـــات ؟

قلب الأسد : هات وخـــذ ، يا حلـو . خـذ وهـات .

الجارية : طيب . هـات .

قلب الأسد : هات حكماً ، يا حلو .
أقضـــي بيننـا .

الجارية : تكـرم عينـــك .

فتقلب الجارية عصا مكنستها على قفاها . أي على قفا العصا . وتضم ما بين حاجبيها ملقية الهيبة . وتفرج ما بين رجليها مفحّجة للقضاء بينهم .

الجارية : اسمــك ؟

أبو شارب : سعدي أبو شارب

الجارية : أبو شارب ؟

أبو شارب : الاسم الحركي .

الجارية : ليــش ؟

أبو شارب : لم تكن شواربنا قد طرت بعد .
فظنوا أننا لا نموت إلا بشلل الأطفال .
فأرسلناها كشفاً لهوية موتنا .

الجارية : فبماذا تموتون ؟

أبو شارب : بالرصــاص . .

الجارية : وأنت ، ما اسمــك ؟

أبو شاربين : سعيد أبو شاربين .

الجارية : أبو شاربين ؟ الاسم الحركي ؟

أبو شاربين : الاسم الطبقي .

الجارية : ليــش ؟

أبو شاربين : قرأوا لنا أنه ، كي نتحد ، علينا أن نبدأ بتحديد نقاط الاختلاف .

الجارية : بالشــوارب ؟

أبو شاربين : لم نجد اختلافات أخــرى

الجارية : عفارم . . . فهل اتحدتم ؟

أبو شاربين : الحق عليــه . .

أبو شارب : بل عليــك . .

أبو شاربين : عليــك !

أبو شارب : عليــك !

وينتقلان من الصراخ إلى المدافعة بالأيدي . فتحول الجارية بينهما وهي تصرخ :

« هوب . ! هوب !
مشاغبون ! حتى في الحشر تعكرون صفو الموت !

ثم تتحول نحو ثالثهم .

الجارية : وحضرة الجناب ؟
شارب الدم : سعادة شارب الدم !
الجارية : هو ، هو . . الاسم الحركي ؟
شارب الدم : لا !
الجارية : الطبقي ؟
شارب الدم : لا !
الجارية : اذن ؟
شارب الدم : اسم السترة . . الله يسترك !

فتستغرق الجارية في الضحك . وتهم برفع ثوبه عن ساقيه بطرف مكنستها . فيشده إلى أسفل وهو يتمتم :

« يستُر على عرضك » .
الجارية : هل يستر ؟
شارب الدم : يستر . . يستر . .
الجارية : فإذا هتكوا هذا الستر ؟
شارب الدم : لانعدم أستاراً أخرى !
غب الطلب !
سِدّة ملآنة !
الجارية : هات يا سبع !

شارب الدم : الجليل قبل الجـولان !
قلب الأسد : حصـــل . .
الجاريـــة : فـوق . . فـوق !
شارب الدم : الجليل كالخليل !
قلب الأسد : حصـــل . . .
الجارية : دي . دي . دي . دي !
شارب الدم : لا نرضى بأقل من استعادة الأندلس !
الجارية : عليهـــم . . !
شارب الدم : قوميـــة المعركـــة !
قلب الأسد : يـا أمـــاه . .

فتنتبـــه إلى سعادية قلب الأســد .

الجارية : وأنـــت ، يا حلـــو ؟
قلب الأسد : وحيـــد مسكيـــن . حيـــران . .
الجارية : اسمك ؟
قلب الأسد : سعادية قلب الأسد .
الجارية : قلب الأسد ؟ الاسم الحركي ؟
قلب الأسد : لا .
الجارية : الطبقـــي ؟
قلب الأسد : لا .
الجارية : اسم الستـرة ، يا حلـــو ؟
قلب الأسد : لا .
الجارية : اذن ؟
قلب الأسد : الاسم القومـــي . .
الجارية : قلب الأسد مرة واحـــدة ؟
من بطـن أمـــك ؟
من المغــــرب ؟

قلب الأسد : لا ، والله ، يا ست الحسن .
أنا صادق .
اسم عائلتنا الأصلي شلباطو .
ولكننا نختار . .
أرض الله واسعة !
أوطان كثير . لغات كثير
والأخرالوجيا . .

الجارية : أخرا ؟ . . هنا ؟
من ؟ أنت ؟
وفي الدار الآخرة ؟

قلب الأسد : آثار . . علم الآثار ، يا حلو !
ننبش الأرض فنجد .
انبشوا تجدوا .

الجارية : عمّن تنبشون ؟

قلب الأسد : عن جدودنا .

الجارية : هل وجدتم ؟

قلب الأسد : عظام كثير . جماجم كثير .
أضرحة . مدنية . قديمة . عريقة .
سيف يماني .
أسوار .
زريبة .
جدودنا .
مخازن عدس ! برغل !

الثلاثة : عدس ؟ برغل ؟
إذن جدودنا !

قلب الاسد : الحقيني ، يا ست الحسن .
ينبشون القبور .

يلاحقونـــني على الأجــداد . .
العظـام ! . الجماجــم !
المدنيـــة !
لا يحترمــون الأمــوات !

وإذ بالسماء يشقها بريق يغشي على الأبصار . فيتحاشـاه سعـادية قلـب الأسد والجارية مدبرين . وأما الثلاثة الآخرون فيجهشون بالبـكاء إمـا عن فيض من الأمل وإما عن فيض من الألم .

وفيما يكونون على هذه الحال تتردد في أنحاء الموقف زغاريد صبايا ونسوة . وتنطلق آهات . ثم تأتينا أصوات أنثوية ضارعة :

صوت فتاة : برأس أمك ، يا خواجة ، تتركنا نعود إلى القرية !
صوت فتاة ثانية : أبوس يدك ، يا خواجة ، خلني لأطفالي !
صوت فتاة ثالثة : يخلي لك شبابك تخلي لي شبابي . .

ولكن ، سرعان ما تستعيد الجارية رباطة جأشها . فتستدير نحـو النـور السماوي وتصرخ :

الجارية : هـــوب ! هـــوب !
نظـــام !
قلب الأسد : نظـــام !
الجارية : اليوم عطلــة ـ عيـــد !
الــذي فات مـات .
يا للـــه . .

فلا يلبث النور حتى ينسحب إباء وشمماً واحتجاجاً .

وتعود الجارية إلى سعادية قلب الأسد وهي مرتاحة الضمير .

الجاريــة : وجدودي ، يا حلـو ، هل وجدت لهم أثـراً ؟

قلب الأسد : حتى أهـرام خوفو !
الجارية : ول ! صحيــح ؟
قلب الأسد : طبعـــاً ! .
الأخرالوجيـا أثبتت أننا بنيناه بأيدينا . .
الجارية : جدودكم . فأين جدودنـــا ؟
قلب الأسد : بسيطـة . . نحمل الأمر على محمل الحاضر .
بما أننا نخدمكم الآن ، إذن ، فجدودنا خدموا جدودكم .
إذا كنا نحمل الحاضر على محمل الماضي فلماذا لا نعكسها ؟
كلـــه عظــام وجماجــم .
ساسليــك ، يا حلــو ؟
الجارية : بترول ، يا حلــو !
قلب الأسد : أيضـــاً بسيطـــة .
أرسليني إلى بئر خليجيـة حتى تختلج الروح في صدري .
فأموت فدا عينيك يا حلو . .
ثم تفعل الأخرالوجيـا فعلها .
الجارية : تموت ميتة ثانيـة ؟ غير ممكــن !
قلب الأســد : ممكـــن ، يــا حلـو .
فعلتموهـــا ففعلناهـــا .
قتلتنـا مدنيتكـم .
ونموت في سبيل مدنيتكـم .
ليحيَ وطن الآباء والأجداد .
لتحي العظام والجماجم والبترول !
الجارية : وهؤلاء . ماذا فعلوا ؟
قلب الأسد : قتلونـي يـا حلــو !
الجارية : ولكنهم قتلى هم أنفسهم ؟ !
قلب الأسد : هكذا شبه لي حتى سمعتهم يقتتلون فيما بينهـم على أنهـم قاتلي !

أقتليـــــهم !

الجارية : أيقتل القتيل مرة ثانيـــة ؟
ويصدق أهل السماء هذه الفريـــة ؟

قلب الأسد : صدقوها . من زمان صدقوها .
صدقوها حتى وهم في الدار الفانية .
سألوهـم فأجابـوا .
هـم فعلوهـا !
أسأليهـــم !

فتتحول الجارية إليهم فيتدافعون نحوها للوقوف صفاً واحداً .

وإذا بأصوات أقدام تهرول في مؤخرة المسرح . ونسمع صوت المهرج وهو يصيح : « كفـى ! كفـى ! » فنهبـط ، في طرفـة عـين ، من السماء إلى الأرض . فنتذكر أننا ما زلنا على هذه الأرض . على هذه الأرض . فيدهمنا قلق الحقيقة .

وتنجلـي الجلبة عن المهرج وهو يدفع بصندوقه ويصيح :

« كفى ! كفى !
القتيـل لا يقتل مـرة ثانية !
القتيـل يتكلم صمتـاً .
صمتـاً لا يمكن اسكاتـه !
صمتـاً لا يسبر غوره سوى القاتل !
دعوا الأم الثكلى تتكلم ! »

صوت بدور : بـــدر !
صوت امرأة أخرى : سعاديـــة !

ويقبل صبية وصبايا يحملون المكانس . ويأخذون في كنس الخشبة أو أرض المسرح . والمهرج يقول :

: عودوا ، يا أولادي ، إلى مقاعدكم .

: أنت يا سعدي وسعيد وسعـادة .

الثلاثة : يقتلوننـا بالتسلل !

المهرج : تشخيص ، يا أولادي ، تشخيـص .

عودوا ولا تقتتلوا .

قلب الأسد : وأنـــا ؟

المهرج : مكانك محفوظ ، يا بني .

فاحفظ لغيـرك غيـره !

قلب الأسد : بيرسلونني الى الجبهة

المهرج : تشخيص ، يا بني ، تشخيص .

عــد ولا تذهـــب !

الجاريـة : وأنـــا ؟

المهرج : وأما أنت فلك الله وعباده !

ولولا أنه تشخيص في تشخيص لقايضتـك بالأرض السماء

مقابل

أن تتركـــي الأرض لأهلهـــا .

ولكن عـــودي !

تشخيص في تشخيص !

ويمضون . يتصدرهم المهرج يتصدره صندوقه . ونسمعه يقول :

« موعدنا القريب ، أيها الجمع الحبيب ، في الجسلة الثالثة والأخيرة .
فلا بد أن يكون لهذا الأمر نهاية ولو على خشبة المسرح ! »

ونسمعهم جميعاً يهتفون ، وهم يغيبون عن أنظارنا :

« صندوق العجايب . الحاضر يعلم الغايب . الحاضر يعلم الغايب » .

ونظل جالسين في مقاعدنا ويمضي الكناسون في عملهم حتى نراهم يهمون

بأن يكنسونا نحن أيضاً . فنصفق ونقف ونتحرك . ونرى فريقاً منا يصافح المشخصين . فنرغب في مجاراتهم إلا أن تواضعنا ، أو نقيضه ، يردنا عن هذا الأمر .

ولا نعدم معلقين يعلقون على ما شاهدوه ، وشامتين ومستائين ويائسين . ولا نكون بينهم لأننا كنا قد عبرنا على ذلك كله .



الجلسة الثالثة والاخيرة

المهرج

« ويسائلون الليل عنــــكِ
وهم لعودِك
في انتظـــــار . . »

بدر شاكر السيّاب

-١-

راح زمان الانتيكا ولكن ...

« من الضروري أن يكون لهذا الأمر نهاية حتى ولو على خشبة المسرح » . .

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير ، يا قشمر بن غمرة ، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر .

الاستراحة ، بين الجلسة والجلسة ، حركة وبرّ ونفاذ صبر . حتى جارتي ، التي لم تشأ أن تحرك نومة طفلها على يدها ، في أثناء الجلسة ، أراها تحركه الآن وترسل يديها الحانيتين وتتنهد بملء صدرها . ويكون لغط الصبيان والصبايا تغريد عصافير توقظ فجراً .

هل تعلم ، يا قشمر بن غمرة ، أن العصافير ، في بلاد الجوف النؤوم الضحى تغرد في جوف الليل ؟

يكون الليل يتمطى ويتثاءب . ويكون الليل يغط في النوم . وإذا بالعصافير تغرد . يشرع في الزقزقة عصفور . يغرد تغريد بلابل . هو بلبل أو كما أتخيل تغريد البلبل . ثم يكف منتظراً أن يخجل فجر . فلا يخجل فجر ! فيعود إلى تغريده مهيباً بإخوته أن يستيقظوا وأن يعينوه على إيقاظ فجر . فحتى طلائع

الطبيعة تدرك أن الوحدة ، ولو في قمم النُسور ، لا تبدد وحشة ليل .

فيلبي التغريد مغرد . فتنطلق جوقة . وتتفتح أكمام من أغاريد . وتحيى الأعشاش على الفلاح الناس . فيخرج الصنّاع إلى صناعتهم . والشمس لا تشرق في فصل الشتاء هناك . وإذا أشرقت تباطأت ولم تسفر . تحجبها عن العيون غيوم ثلجية وسماء سخية . إلا أن العصفور المغردِ لا تنطلي عليه هذه الحيلة . ولا على الصانع ولا على الزارع . فيرون انجلاء العتمة فيما وراء الغيمة . فيغردون . فيؤذن بفجر لا محالة .

فكيف بالفجر في بلادنا ، حيث لا يتوانى الفجر الجديد عن تلبية نداء التغريد ولا تتحجب الشمس ؟ ! فيا خالق ويا خلق ، متى تشرق الشمس في هذا الشرق ؟ !

وما كان يزقزق عصفور في البلاد البعيدة ويصدح فجر على أغصان الغمام حتى أتذكر نومة ضحى ينفرها نور شمس أو عصا جدي ـ في بلادنا البعيدة ـ تحت عريشة في حقل من البطيخ والشمام . أو في كروم الدوالي . أو فوق مراتب التتن . وكنا نصدح ، نحن أيضاً ، ونقرقر . وكنا ننتظر نهاية لهذا الأمر ـ سنة دراسية أخرى .

بلادي ، يا بلادي !

كم زقزقنا لاستدرار فجر . وكم توقعنا طلوع فجر

وما زالت والدة أولادي ، جدة أحفادي ، تعيرني أنني لم أمهرها سوى مهر مؤجل خمس سنين : وعد ، من قبل خمسة وثلاثين عاماً ، بأن انجلاء هذا الليل لن يتأخر . وما هي إلا رمية سنوات خمس حتى يطلع فجرنا فأراودها عن فترة التأجيل . وأدعي أنها عشر سنين لا خمس . فتعاندني وأعاندها حتى تنقضي ليلة أخرى على صداق لم يصدق منذ ثلاثين عاماً .

بـــلادي ، يـا بـــلادي !

متى ينقضي هذا الأمر ويزول عنا هذا القهر ؟ !

لقد شمست ، في هذه الأثناء ، مهور كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها . وأخذنا أعراسهم عرساناً . ولكن ، أي عريس زفّوه إلى الثرى لم نزفّ مثله ؟ وأية ثريا بكت عليهم ، نجوماً وكواكب ، لم تبك علينا ؟ فلماذا تثاقل ليلنا وأدار الفجر لنا ظهره ؟

بـــلادي ، يا بـــلادي !

لا تلوموا الضحيـة !

كيف نلوم الضحية ؟ نحـن الضحية !

حتى على خشبة المسرح سيكون من المثير ، يا قشمر بن عمرة ، أن نرى إلى نهاية هذا الأمر وإلى طلوع هذا الفجر .

بـــلادي ، يا بـــلادي !

وفيما نكون على هذه الحالة من النوسطالجيا ، ومن الريب بقدرة الصندوق على كشف الغيب ، متأرجحـين بـين الصـداع والصـداح والحنـين إلى ليالي الصيف الملاح . .

. . إذا بالمهرج يقبل علينا وهو يدفع بصندوقه . وتظهـر بدور وراءه . ويحتشد وراءهما حشد من الصـبية والصبـايا تقودهـم صبية تتمنطـق بطبلـة وتنطقها ، نقراً ، نغماً رتيباً .

ويكون الآخرون يصفقون على النغم وينشدون النشيد :

النشيـد : طبلٌ . طبلٌ . مزّيكـا .
راح زمـان الأنتيكـا .

اصمد . اصمد . مافيكا .
راح زمان الأنتيكا .
أحمي وطنا يحميك .
راح زمان الأنتيكا .
فتح . فتح عينيك
راح زمان الأنتيكا .
طبّل . طبّل . مزيكا .
راح زمان الأنتيكا .

وتجلس بدور على مقعد الصندوق . وتتكتّف وامارات نفاذ الصبر بادية على محياها . ويقف المهرج وراءها ، والصندوق بينهما ، يهم بالكلام . إلا أن المنشدين لا يكفّون عن انشادهم . ونراهم يطوقون بدوراً والمهرج ، وبينهما صندوق العجايب ، في دائرة من الراقصين والراقصات ، المنشدين والمنشدات ، وعلى رأسهم الصبيّة الطبالة . وتكون الصبيَّة تنقر على طبلتها . ويكونون يرقصون ويدورون في الحلقة مرددين القرار باصرار ، فيما يقومون بحركات استهزائية ، بأصابعهم على أنوفهم أو على آذانهم ، يريدون بها الاستخفاف ببدور وبالمهرج وبجيلهما كله .

ويصفق المهرج بصنجيه . وأما بدور فتظل على حالها مقيمة .

حتى يضيق المهرج ذرعاً بهم . فيروح ويجيء في وسطهم ويقطع الحلقة عليهم ، عرضاً وعمقاً . فينتحون ، غير متفرقين ، مكاناً قصياً . سوى الصبيَّة الطبالة التي نراها ، على قصر قامتها ولين عودها ، تواجه المهرج وتتحداه . وتنقر على الطبلة وتنشد في عناد :

« راح زمان الأنتيكا .
راح زمان الأنتيكا . »

ثم تجهش في البكاء

فيتلطّف المهرج بها . ويحوطها بذراعه ويكفكف دموعها . ويقول ، وعمر السامعين يطول :

المهرج : لا بأس . لا بأس يا صبيّة .
راح زمان الأنتيكا .
ولكن ، ماذا جاء بعده ؟
الجمع : زماننا . .
الطبالة : زماننا . .
المهرج : راح زمان الأنتيكا .
يقينا راح .
ولكن الأنتيكا لم ترح .
راح زمان الأنتيكا
وبقيت الأنتيكا
الطبالة : زماننا آخر .
زماننا جديد
المهرج : نحن ، أيضاً ، في صبانا ،
في زماننا . .
أنشدنا هذا النشيد .
وكان زماننا جديداً .
ولكن ، حين كبرنا
أكلتنا الأنتيكا .
أكلتنا التراخوما .
بدور : بدر لا يشيخ !
المهرج : ولا شعب بدر ، يا بدور .
لا يتركونه يشيخ !
أكلتنا الأنتيكا .

أكلتنـــا التراخومـــا .

ويأتينا ، من رؤوس جبال بعيدة ، قرع طبل أفريقي . فيرد عليه طبل آخر . فيستجيب للنداء ثالث . فطبول . فغابة من طبول .

وتكفهر سماء . ويعم ظلام سوى ضوءان ينطلقان من عيني الصندوق . ونسمع جلبة ولا نرى مصدرها . وإذا بالمهرج يصفق بصنجيه ثم يقول :

المهرج قم تفرج ، يا سلام ، على عجايب الزمان .
في أعماق افريقية الاستوائية
على شاطىء النهـر العظيـم ،
في شمالي غانا وفولتـا العليا
ومالـــي ،
حيث تتراوح نسبة العميان بين عشرة وثلاثين بالمئة ،
تهجع قـرى
جميع البالغين فيها مصاب
بالعمـى .
أكلتهـم التراخومـا .
والوحيدون ، الذين تبصر عيونهـم ،
هـم الأطفـال .
فإذا شبوا على الطوق وكبـروا ،
أكلتهـم التراخومـا .

ويضاء المسرح . فإذا ببدور على جلستها ، وهي مُكَتَّفة لا تريم . ويقف وراءها المهرج وبينهما الصندوق . هذا في زاوية . وأما في الزاوية الأخـرى فنرى الصبية والصبايا يفترشـون الأرض في حلقة تتوسطها الصَّبية الطبالة . وتكون الصَّبية تهمس في اذن هذا الصبي ثم في اذن تلك الصبية . فيهللون

مرة ويصفقون مرات . ويضحكون ويزقزقون ويغردون . ونسمع وشوشتهم كأنها حرير جدول جبلي ، حيناً ، وكأنها حفيف الأشجار في دغيلة أفريقية مغلولة ، أحياناً .

وأما في وسط المسرح فنرى رجالاً ونساء . لهم عيون شاخصة ولكنهم لا يرون بعيونهم . عميان أكلتهم التراخوما . ويكونون يحملون ، فيما بينهم ، حبلاً مرساً طرفه الأخير في يد شيخ منهم يجلس القرفصاء على مرتبة عالية . ويعتمر هذا الشيخ ، فوق رأسه ، طرطوراً . وتكون سقيفة من نخيل تظللها ـ الرأس والطرطور . .

ويتقدم الرجال والنساء نحو الشيخ المطرطر ، صفاً واحداً . الواحد وراء الآخر . والهادي إلى الطريق الحبل المرس . ويبدو لنا أنهم تمرسوا على هذا المسلك .

وفي آخر المطاف ، وحين يدرك الواحد منهم طرف الحبل واليد التي تمسك به ، يقبِّلون هذه اليد ، ثم يفترشون الغبراء على جانبي المرتبة وشيخ المرتبة برأسه وبطرطوره وبالسقيفة التي تظللها .

فتأخذ يد الشيخ ، المطرطر والمسقّف ، في طي الحبل ثم في إرساله ثم عد عقده ثم في ارساله . حتى نخاله يسبح بسبحة أو يلاعب أفعى تنساب بين يديه كما تنساب في نخاله .

وتصدر عن الشيخ همهمة :

أحدهم : أعد !

فيعود الشيخ ويهمهم .

آخر : طيب الله الأنفاس !

فيزمجر الشيخ المطرطر .

آخــــر : بالروح ، بالدم . . !

الشيخ : أزعجتنا هذه الصبية الطبالة

الجميـــع : مالهـــا ؟

الشيخ : هذا رأس . مش بطيخة !

الجميع : تبـاً لـــها !

الشيخ : بلغت سن الرشـد ؟

الجميـــع : بلغ سن الرشـــد .

الشيـــخ : فمتى تثوب إلى العمى ؟
العمـــى . . !

أصـوات : أنت عيونـنـــا . .
يا عيونـــنا . .
يا عيـن . . يا عيـــن .
لا طرطور غير هذا الطرطـور
طراطيرنـــا نواطيرنـــا . .

أحدهـــم : يحيى الطرطـــور . .

الجميـــع : يحيى الطرطـــور !

الشيخ : . . الناطـور . قولوا : الناطور .
إذا أردتم تكريمي فنادوني
بالناطـــور .
نحن عيلة واحـدة ، يا أولادي .
وأنا ناطورهـــا .
أما الطرطـور فوظيفـة .
بحسب الدستور . كله بحسب الدستـور .

أحدهم : بالروح ، بالدم .
نفديك يا طرطور !

الشيخ : قلنا ناطور ، يا ولدي .
ناطور . طور .

أحدهم : بالروح . بالطور
نفديك يا ناطور ! .

الشيخ : وابنة الزانية ،
كيف فعلتها الزانية
كيف تأخر نموها ؟
هذه المعوقة المارقة !

آخر : سمعنا أنها تستعمل مسحوقاً
أحضرته من خارج القرية
لمنع العمى

فيهمهم الجمع . ونسمع أصواتاً تردد :

أصوات : رجس
رجس من الشيطان .
جيل وقح
مدمن على تعاطي البصر .

الشيخ : أحضرته من خارج القرية !
من خارج العيلة ؟
عيب !

أحدهم : قالت أنه مسحوق
البرتقالية

الشيخ : دكترة البرتقالية ؟
أعوذ بالله !
وأنا . وطرطوري ؟
وأجدادي
الشجرة ،

حتى جـذور الشجـرة
والديـدان في جـذور الشجـرة !
نحن فلاحون ، يا أولادي .
غيـط .
من سبعة آلاف سنة والمرسى
في أيـدي أجدادنـا .
نتوارثـه
ونتوارث رقابكـم فيـه .
مدنيـة عريقـة :
تقبلـون وتقبّلـون ،
فأتقبـل منكـم الجزيـة
وأتنطـر عليكـم .
عيلـة واحـدة
فـلاحون
بقـر . غجـر ـ دستـور .
كلـه بحسـب الدستـور

آخـر : لتسقط دكّـة البريطانيـا

آخـر : أمرهم شورى بين الطراطيـر !

آخـر : حمير ، أولاد حميـر !

آخـر : هل من معيـن ،
هل مـن مجـير ؟

الشيـخ : أنـا . . .
رب العائلـة .
والمـرس
والعصـا لمـن عصـى
والعمـى !

أحدهـم : عاش الطرطـور الذي أسبغ علينـا

نعمة العمى
وراحة البال
الجميع : عال . العال .
عال . العال .
امرأة : ماذا فعلت الجاهلة ؟ !
الشيخ : جاهلة ؟
بنت العشرين ، جاهلة !
خرجت على الإجماع القومي ،
عن طاعة الآباء والأجداد .
تستحم في النهر دون الاستعانة بالحبل .
وتميز النهار عن الليل .
تسترق النظر .
وتحدث بصراحة الطفل .
أمها : ما زالت طفلاً ، يا ولدي .
تغرّب والدها للعمل في مزارع
البيض .
فعاد عظاماً لا تصلح حتى للحساء .
يتيمة وجائعة
وأنا منبوذة أحسو
تراب الأرض .
الشيخ : العمي . .
بلغت العشرين
ولم تطلع في عيونها الطواحين ؟ !
زانية بنت زانية .
إبعدي ابنتك ومسحوقها المستورد
عن أولاد الناس .
أو تسحقها وتسحقك الأمة !

أحدهم : لا خوف على أولادنا .
أولادنا رضعوا التراخوما
من أثداء أمهاتهم
الحرائر .
لا خوف على أولادنا .
يا سعادة الطرطور .

الشيخ : قلنا ناطور ، يا ولدي .
ناطور .
عيلة واحدة وأنا
الناطور .

نفسه : يا صاحب الجلالة الناطور .

آخر : الأوحد والوحيد
ومدى الحياة !

الشيخ : بالدستور يا ولدي . .
كله بالدستور .

الأول : لا خوف على أولادنا بالدستور .

آخر : الطرطور فوق الدستور !
الطرطور فوق الدستور !

الشيخ : لا ، يا ولدي . لا لزوم .
فالدستور هو الطرطور والطرطور هو الدستور

الأول : لا خوف على أولادنا هو الطرطور
والطرطور هو الطرطور

الجمع : الدستور هو الطرطور
والطرطور هو الدستور

ويمضون في ترديد هذه اللازمة وهم يتمايلون على وقعها ، في دروشة مغرية نضحك لها حتى تغرينا على تقليدهم ، إنشاداً ودروشة .

فنفعل ونحن في غفلة من أمرنا .

وفيما نحن على هذه الحال ، تدروشنا الدروشة ، إذا بنا ننتبه إلى حلقة الصبية والصبايا ، في الزاوية ، وقد أخذت تتمايل ، هي أيضاً ، إلى يمين وإلى يسار . وتهمهم على إيقاع النشيد . ثم إذا بأصواتها تعلو . وإذا بنا نسمعهم ، هم أيضاً ، يرددون :

« الدستور هو الطرطور .
والطرطور هو الدستور . »

فتنتفض الصَّبية الطبالة فإذا هي واقفة في وسطهم وقد أسقط في يدها . وترفع يديها إلى السماء في ذهول . فيأخذ الصبية والصبايا في الوقوف وهم يتمايلون وينشدون .

وإذا بهم يمضون ، وهم على هذه الحالة ، متعثرين في مشيتهم . ويتقدمون وأيديهم أمامهم تتلمس الأثر ، عمياناً ، أو متعامين ، حتى يتحسسوا كبار القوم منهم ، السابقين في النعمة . فيفسحون المجال أمام الجيل الجديد . فيقرفص الجيل الجديد وراء الجيل القديم ويمضون في التمايل والإنشاد حتى تصرخ الطبالة :

الطبالة : هل أكلتهم التراخوما ؟ !
المهرج : الأنتيكا ، يا صبية ،
الأنتيكا !
الطبالة : أين أخطأت ؟

فتنبّ عن أحد الشبان العميان ، أو المتعامين ، قهقهة عالية ، ثم يقف على قدميه وهو ممعن في الاهتزاز وفي الدروشة . ونسمعه يرد على الصبية أن :

« بضاعة مستوردة .
لا تتفق وتقاليدنا .

ستظليـــن ، يا طبالـــة ،
على هامـش الحيــاة
ما دمت تعتمدين على المساحيـق
الأجنبيـــة .
أمـا نحـــــن ،
فقد تخلصنـا من التحجـر
ومن الأبقــار المقدســة .
اندمجنـــا !
تعامينـا حتى عمينـا .
اندمــاج كلـــي .
وغداً سنرث الطرطـــور .
فلا صاحب جلالة ولا من يحزنـــون .
بـــل رفيــق . .
صاحب الجلالة الرفيــق الطرطـــور !
وفي القريـــة المجــاورة
نجـــح الانقـــلاب . »

الطبالة : والتراخومـــا . .
هل تخلصـــوا من التراخومـــا ؟

فلا نسمع جواباً سوى قهقهة ذلك الشاب ، مرة أخرى ، وسوى استمرار اللازمـة :

« الدستـور هـو الطرطـور .
والطرطـور هو الدستــور . »

ويتسارع الإيقاع فيتسارع الاهتزاز . ويعلو الصوت بالنشيد حتى يشـق عنان السمـــاء .

وإذ بهم يقفون على أرجلهم ، طرطوراً وجماعـة ـ ويرسـل الشيخ حبلـه

المرس فيتعلقون به . واحداً وراء الآخر . ويمضون خارجين : الشيخ في الصدر والشاب ، المندمج كلياً ، في مؤخرة الطرطور . ثم بقية الجماعة . ونرى هذا الشاب يهم بأن ينتزع الطرطور عن رأس الشيخ فيتردد إمعاناً في الاندماج . ونرى ، في مؤخرة الجميع ، القادمين الجدد .

وتضرب الصَّبية الطبالة كعب حذائها بالأرض عنتاً أو إصراراً على التحدي . ونسمعها تردد لازمة أخرى :

« راح زمان الأنتيكا .
راح زمان الأنتيكا ! »

ثم تهرول خارجة ورأسها في السماء تنقر على طبلتها نشيد الأمية .

فيسألها المهرج :

المهرج : إلى أين ، يا صبية ؟
الطبالة : أبحث عن جيل جديد .
لن أكف ولن أمل .
فهل من بديل ؟
إني أحبهم كما أحب بؤبؤ العين .
وأحب بؤبؤ العين .
فهل من بديل ؟
أنا واحدة منهم .
وقد شفيت .
فلماذا لا أشفيهم ؟
سوف يشفون .
فهل من بديل ؟
ماذا تريدني أن أفعل ؟
هل من بديل ؟

وتمضـــي .

ونسمع المهرج يهمس في اذن بدور :

المهرج : يقيناً ، مـاذا نريدها أن تفعل ؟
هـل من بديـــل ؟

ويتجــه نحونـا ويسألنـا :

« أجيبونـــي -
هـل مـن بديـــل ؟ »

فلا نحيــر جوابـاً .

فيعـود :

« هـل مـن بديـــل ؟ »

فنمعن في الصمـت . .

- ٢ -

"ولكن" اخرى بعد "لكن" التي ورد ذكرها آنفاً..

ويذهب المهرج ويجلس إلى جانب بدور على مقعد الصندوق . ويحوطها بذراعه . ونسمع ، من بعيد ، لحن « أغنية حنين الهندي » ، لحناً يقطع نياط قلوبنا ، فكيف بقلبيهما ؟ !

ويشرق حنين في سماء بدور .

ويكون المهرج يهمس في أذنها :

المهرج : أتسمعين ، يا بدور ؟

بدور : حنين . .

المهرج : أتذكرين ، يا بدور !

بدور : تذكرته . .
حنين . .
الشاب الأسمر .
بائع الكتب الجوال .
صاحب اليدين الساحرتين .
يشعل الفتيل المبتلى
وخيال العذارى . .

يا لطيبة قلـب الأمهـات !
أتذكـــر ؟

فيضحكـان .

صوت امرأة : روحي ، يا بنت ، نادي على
الشـاب حنـــين ،
صاحب اليدين الساحرتيـن .
يعينك على تشميس الفـراش .

صوت زوجها: إياك ثم إياك !
لسانــه سحر
وعقل البنت طـار .

الزوجة : لقد طارت وقضي الأمــر . .

فيضحكـــان .

المهرج طارت إلـى بعيــد . .
بعيـــد . . بعيــد !
تغربـــت .
غرّبـوهـــا .
غرروا بهــا .
فغرت هـوة الزمـن فمهـا .
فابتلعـت الذاكـرة .

بـدور : كان صانعاً فقالوا لهـا :
صايـــع !
كان مؤمنـاً بالحياة فقالوا لها :
كافــر بالآخـرة !
أحب النـاس أن يتحابـوا
فقالــوا لهـــا :
خائــن !

آمن بالكلمة فقالوا :

أهبل !

زوجوني بآخر ، يا حنين .

طيروه . .

فطرنا بعيداً

طرنا وطارت الأيام !

المهرج : أتذكرين ؟ !

بدور : حين ذهب بدر ولم يعد

وخزني صدري .

فلما ذهبت بدرية ،

ثم ذهب بدران

فبيادر . . . .

تحرك في أعماقي

حنين راقد .

تأنيب ضمير :

ماذا فعلنا ، يا إلهي ،

وماذا لم نفعل ؟

أيختلف ليلنا عن كل الليالي

بطوله ؟

صوت أم : آه ، يا ولدي البعيد

عن الديار !

وينلاه !

كيف تعود وحدك

لا دليل ولا رفيق* ؟

---

* الابيات للشاعر العراقي بدر شاكر السيّاب .

صوت ولدها : أمـاه

ليتكِ لم تغيبي خلف سـورٍ

من حجـار .

لا بـاب فيه لكي أدقّ

ولا نوافذ في الجـدار !

كيف انطلقت بـلا وداع

فالصغـار يولـولـون

يتراكضـون علـى الطريـق

ويفزعـون فيرجعـون .

ويسائلـون الليـل عنـكِ

وهم لعودِك في انتظـار* . .

المهرج : في انتظـار ؟ . . . .

بـدور : كفى قشمـرة ، يا حنـين !

أنـت حنـين .

الشـاب الأسمـر

بائع الكتـب الجـوال

وصاحب اليديـن الساحرتيـن

لا ، وحسـرة الزمـن الضـائع ،

يـا حنين .

لم أسأل الليل عنـك

نسينـاك ، يـا أسمـر ،

حتى سألَنا الليل عنـك .

المهرج : بـدور !

بـدور : إن وسواساً يراودني علـى حيـاتي

---

* الشعر لبدر شاكر السياب

حتى يدهمني الشعور بالعبث .
يمتلىء صدري بالفزع
من هزلك الجاد ، يا أيها المهرج .

المهرج : بدور . . !

بدور : هل تظل ذاكرة الشعب
عذراء
من جيل إلى جيل
حتى ولو لم يبق مغتصب ،
عبر الزمن الغاصب ،
إلا واغتصبها وأثخنها بالجراح
وأهدر دمها
وأخذها سبية
وباعها في سوق النخاسين ؟
هل حقاً ؟ !

المهرج : ألوم نفسي . .

بدور : لا تلم الضحية . .
أتذكر ؟

المهرج : قد يكون أن أكلة لحوم البشر ،
العصريين ،
- بالشوكة وبالسكين -
يلتهمون ، معها ، الذاكرة .
ربما !

بدور : هل قيض لهذا الشعب المبتلى ،
الممتحن . .
المطوّح ، المضرّس ، المغدور ،
أن يعود على التجربة
من أولها ؟

هـل ينســى ؟ !

المهـرج : لا ينســى وطنـه !

بـدور : حتى الوطـن ؟ !

لا ، لا ينسـى وطنـه .

ولا المغتربـون المغربـون ،

الغائبـون المغيبـون ،

ينســون الوطـن .

فالوطـن لا يُنســى .

لا يُحمل علـى الظهـر في حقيبـة

حتـى يُنسى فـي محطـة .

أو يُلقـى عـن الظهـر

تعبـا . .

ليس الوطـن كالنفـس .

إنمـا الوطـن كالتنفـس .

وحال الوطن كحال إنسان الوطن :

لا يختـار انسانيته بـل يولـد

انسانـاً .

وإذا خيرّنـا ،

هل نختار أن نولـد خنازيـر ؟

أتذكـر ؟

المهـرج : أذكـر ولا أنســى . .

بـدور : وحين تثاقل الفـراق في مشيتـه

واستولـى على عيْنَيٍّ الغربـة

النعـاس

وأخذ الوالدون يتساقطـون

تساقط فراش يهوم على

سـراج ،

سراج يشتعل فتيله وينضب زيتــه ـ
ســراج العـودة ـ
اشفقنا على معالم الوطن أن تدفن ،
مــع الرجــال ،
في صـدور الرجـال ،
حين راحوا يمضون وتمضي معهم ،
مكفّنة بصــدورهم
حكايات بدور التي أسرهـا الغول . .

صوت غلام : ستي بـدور ! ســتي بـدور !
شوفـي القمر كيـف يـدور !

صوت فتاة : وأينهُ وأينهُ
يا ولـــد ؟

فنسمع صوت قهقهة . ثم نسمع صرخة فتاة ، تلك التي أسرها الغول .

بدور : فنقلنا إلـى الولـدان
معالـــم الوديـــان ،
وتغيّــر الزمـــان ،
والصمـود في رؤوس الجبـال . .

صوت رجل : بللي شفتي أحمد بقطرة ماء ،
يا أم أحمـــد !
يا أم الشهيــد !

بـــدور : وأسمــاء الأطـلال
والصمـــود المحـــال
والنـاس والرصـاص
وبحارة يافـا وعمـال حيفا
وزنزانـة فـي عكـا
وارجوحـــــة

وظـلام السجـن
ومناحـة
وملـوك ومملـوك
وملـك مملـوك . .

المهرج : حبيبـتي بدور . .

بـدور : حتى ثورة العشرين وجدنا من يتحدث
عنهـا من فرسانـها ،
ممن لم يحـن هاماتهـم
لا الزمـن
ولا المحـن
لا الغربـة
ولا ذوو القربـى .
ولكن ما هَزَمَنَا ؟ !
ما شرّدنـا ؟ !
ماذا فعلنا ولم نفعل ؟
ما هذه العقـارب القارصـة
تحصي الدقائق والساعـات والأيـام
والسنـين
في الزمـن القـارص ،
في هذا الزمن الضائع ؟ !

المهـرج : تأبى صدور هؤلاء الرجـال
أن تُخلـي سبيـل السـر .
الصدمة الكبـرى ، الصاعقـة ،
البراكين . .
أغشت أبصـار الذاكـرة .
وألقت على الجرح غشاوة من الرحمة
الذاتيـة ،

رحمة بهم وبما بذلوه
من أبناء
فأعادتها عذراء ،
إلا من ذكرى الكروم والبيارات
والبيادر
وأيام كنا . .
ربما !
ولكن ، يا بدور ،
لا تلومي الضحية .
أتذكرين ؟ !

بدور : أذكر ولا أنسى .
ولكن !
هل من الممكن ، في حالة الشعوب ـ
أي شعب ، هذا الشعب ـ
التضحية بالكبش المضحى ،
هو نفسه ،
مرة ثانية فثالثة
فعاشرة
هو نفسه ؟ !

المهرج : هو نفسه . وهو آخر ، يا بدور ،
في المكان نفسه .
مَثَلُ الشعوب مَثَلُ مياه النهر :
هي نفسها وهي أخرى
في النهر نفسه .
وكبش الضحية ، ولد الضحية .
هو نفسه وهو آخر
في المهمة نفسها . .

من عيـد إلى عيـد .
من عيد إلى عيـد . .

بـدور : خلعنا جلـد الضحيـة .
حملنـا البندقـية .
ورثنـاهـا لامعـة
مسنونـة ،
محفوظـة بالزيـت
في أضرحـة الآبـاء والأجداد .
أمانة تـرد إلى الأحفـاد .
لقد حملوها كما لم يحملها شعب
فيمـا بيـن البحريـن .
وقدموا ، من أقصـى الجـود ،
ثمنـاً لحريتهـم
يفيـض عنهـا
ويروي موات الأرض لدى ذوي القربى
ويخفف العبء عنهـم .
ثم لا يردون الجميـل إلا
نكرانـاً !
لقد أرخصوا نفوسهم حتى أصبحنا نشعر
بأن استمـرار حياتنـا
خيانـة . .

المهرج : أو لأمر عظيـم ، يـا بـدور !
حكمـة سماويـة .
ومسؤوليـة اجتماعيـة .
نحن جيل ، يا بدور ، يعلم أن حياتـه
وصيـة . .

بـدور : ها أنـا ، يا حـنين ،

وصيــــة . .
وصيــة بــدر وكل البدور
أجيــال النســـور . .
فماذا فعلنا وماذا لم نفعل ؟
أيـة غشاوة ألقيت على الذاكرة
فأعادتهـا عـذراء ؟ !

فيقف المهرج على قدميه . ويلتقط صنجيه ويصفق بهما . وما ان يقوم بهذا الأمر حتى يأتينا لحن شهـرزاد ، ألف ليلـة وليلـة ، وشوشـة آتية من جوف الماضي . فيتراجع الضوء مخلفاً وراءه حبيبات من النور تحملنا جميعاً ، ومعنا المحبـين اللـذين التقيا في خريف العمـر ، والصنـدوق ، إلى سالف العصر والأوان .

ويأتينا صوت المهرج ، في هذه الأثناء ، ينشد قائلاً :

المهرج : عن شِكـي ، عن بِكـي .
عن جعفـر البرمكـي .
آن الأوان ، يـا صبيـة ،
أن تنطقـــي !

وإذا بكومة سوداء ، لم نكن انتبهنا إلى وجودهـا في الـزاوية القصية من المسرح ، تنقشر عن فتاة مفتنـة . كأنها زهرة المرار ، تسلب الألباب وتجفوها الدواب . وإذا هي شهرزاد الأسطورة ، بردائها الناعم الفضفاض وبسروالها المهنّد والمسنّـد ـ شهرزاد كما خلقوها لنا حتى نسبّح الخالق ونسبح في نعمـة خلقه . ولله في خلقه شؤون .

وتبتسم شهرزاد ثم ترد على المهرج قائلة :

شهرزاد : « ولكن الشـوف ، يا نـاس ،

مش مثـل الحكـي ! »

فيعود المهرج الى شكـواه وبكاه :

المهرج : عن طيـر طـار
طـار ثم طـار
ولكن ما نسي الأهل والديـار .
عن بير مالــه قرار .
وعن وطن جولـوه إلى
مقبــرة فخّــار .
وعن قمقم بأيديهــم حطموه .
فانطلق منه مـارد حبيس ،
مفتـول الساعـــد ،
ذكـــي وأنيـــس .
يشعل في الهشيـم النـار
ويبـدد ظـلام الليـل .
ويطلع علينـا وعلى الحاضرين
أجمــل نهـــار .

شهرزاد : عن شكـــي . عن بكـــي .
آن الأوان ، يـا صبيـة ،
أن تضحكـــــي . .

المهرج : عن شكـي . عن بكـــي .
يا صبيـة ، تكلمـــي !
ما بـــــك ؟ !

فتتكلم شهرزاد . تحكي لنا حكاية من حكاياتها :

شهرزاد : بلغنـي ، يـا مهرج الزمـان
الطويـــل اللســـــان ،
أن السندبـاد ، في رحلتـه الأخيـرة ،

وقع على جزيرة باسقة الأشجار ،
بعيدة الثمار .
وكان أرهقه الجوع والاجهاد
والسجود لرب العباد .
ولكن الشوف ، يا ناس ،
مش مثل الحكي . .

وتقوم شهرزاد عن جلستها الشهرزادية ، تتلوى وتتقصف ، وتكشف ستارة في زاويتها تتكشف عن شجرة باسقة ، ثمارها بعيدة المنال تتلألأ في الضوء ، أشبه بلآلىء البحر منها بثمار البر ، حتى كأنها تنادي المشاهد :

« هل لك ، يا أبا الحسن ، هل لك ؟ » .

ويكون يقف تحت هذه الشجرة السندباد كما نراه في عيون أخيلتنا : شاب قوي البنية ، فارع الطول ، حقيق بأن يصول وأن يجول . إلا أنه يظهر أمامنا ، الآن ، في بقية من ثياب ممزقة ، مجرحاً ، متخناً بالجراح . ويكون محني الظهر يعاني من القهر . وهو يئن ويتوجع .

ونرى ، تحت قدميه ، كومة من هشيم . وهي أغصان وعيدان جافة . تنتشر رائحة عفونتها انتشار رائحة العفن الذي يلفظه بحر على شاطئه بعد أن ينحسر . وتكون أشبه بقشور الأشجار والحطب ، مما يتراكم في جوف غابة أوربية تتزاحم رؤوس أشجارها على نور الشمس فلا تترك منه ، للجوف ، سوى الأشلاء والفتات وجيف العفونة .

ونرى ، في وسط هذا الركام ـ جزءاً منه ـ شيخاً هرماً قمئاً ، تنتشر صفرة الموت في سحنته الشبيهة بالأرض الموات التي شققها الكسل ، قزماً في طول عود من العيدان المقصوفة والجافة حواليه . له يدان ورجلان أشبه ما تكون ، في دقتها وفيما تثيره في النفس من اشمئزاز ، بأرجل العنكبوت الدغفل وأطرافه

العنكبوتية . ويكون هذا الدغفل يحيط رأسه ـ صدقتم أو لم تصدّقوا ـ بتاج تتلألأ جواهره حتى نخالها لقية في نبش نخالة .

ويكون هذا الدغفل يخرج من فيه أصواتاً حادة أشبه بفحيح الأفاعي أو بما يصدره من صوت مسمار يسحب على صفحة من حديد .

ونتبين فحوى فحيحه :

الدغفل : سندباد ! سندباد !

السندباد: آه يا ظهري . أنا جائع
والثمر بعيد المنال

الدغفل : سندباد ! سندباد !

السندباد: من المنادي ؟
من المجير ؟

الدغفل : أمامك أنا ،
بين رجليك .
أيها الجائع
أنا أطعمك .

السندباد: اني أرى قزما
أو بعضاً من قزم .
فكيف تبلغ الثمار ؟

الدغفل : أحني ظهرك . .
تحت . .

السندباد: ولكن الثمار فوق ،
فوق . .

الدغفل : إحني ظهرك
فأركبك .
بقامتك وبيدي

أبلـغ الثمـار .
أقطفهـا بيـدي
وأطعمـك .
والـد برّ بولـده

السندبـاد: تركبـني ؟!

الدغفل : حتى نبلـغ العلـى
فـوق . .

السندبـاد: هـل أفعـل ؟
أراه يلبس تاجـاً .
لآلئـه تبهر البصـر .
عريـق المحتـد .
شيـخ بركـة .

الدغفل : احنـي ظهـرك يـا ولـدي !

فيحنـي ظهره السندبـاد .

الدغفل : تحت . تحت ، يـا ولـدي !

السندبـاد: البركـة فيـك ، يا شيخنـا .

الدغفل : اوطأ . اوطأ ، يـا ولـدي !
مالـك غيـري ، يـا حنـون .

وإذا بأمرين يقعان في آن واحد : الدغفل يقفز فإذا هو فوق كتفي السندباد راكباً وهو يضحك في هسهسة كريهة . والمهرج يصرخ فيأتينا صراخه غمغمة وجلجة .

المهرج : حَـذْ . . حـذْ . .
حـذار يـا سندبـاد !

الدغفل : قضـي الأمـر .
نفـذ السهـم .

ولم تعد تجدي الحذ حذة !

السندباد : اقطف لي ثمرة ، يا شيخي .

فإني جائع .

الدغفل : الثمر بعيد المنال .

وأنت محني الظهر .

جاهل .

أقم ظهرك حتى أبلغ الثمر .

السندباد : كيف أقيم ظهري وأنت تركبني

يا شيخ ؟

الدغفل : شد حيلك !

السندباد : خفف ضغط ساقيك

على عنقي !

الدغفل : فترميني عن ظهرك ،

أيها الخبيث ؟

سأشد على عنقك حتى اكرهك

على الانتصاب

فنسمع حشرجة السندباد وهو يتحامل على نفسه ويعالج قامته ليرفعها .

الدغفل : اجهد . جاهد ! .

شد !

ها هو تاجي يلتصق بالثمار !

إنها جواهر !

السندباد : جواهر ؟

أين الثمار ؟

إنني جائع . .

الدغفل : جواهر . مجد .

عُلى !

أمجـاد . جواهـــر . .

ويملأ تاجه وجيوبه بالجواهر .

السندباد : الخبــز . .

الدغفـل : مــادي . .

كافـر بالشرق الروحانــي .

أمجـاد . جواهـر !

السندبــاد : أنــا جائــع !

كســـرة . .

الدغفل : يكسـر رقبتـك !

أنا ربكـم كسـرى .

ألم يكفك أنني أقمت ظهـرك

وأعـــدت أمجــادك

وأنشأت لك الجامعة العربية ؟

خيّـــل !

ويخيـل عليــــه .

وإذا بالأرض تزلزل زلزالهـا ويهـب الإعصـار فتقـع الشجـرة . وتتبعثـر الجواهر . فيقفز الدغفـل من فوق كتفـي السندبـاد . فيقـع على الأرض . فيمضي يحبو على أربع يلتقط ما تناثر عليها من جواهره . ويروح ، وهو يحبو ، وراء جواهر بعيدة عن أنظارنا .

السندبـاد : الـزلـزال ! الـزلـزال !

الدغفل : ليس زلـزالاً ، يـا جبــان ،

يـا خائــن ،

بل زلـزال مزعـــوم

السندبــاد : يقتلعنـي الـزلـزال !

الدغفل : أرض الله واسعــة

من المحيـط إلـى الخليـج .
يـا هـلا ! يـا هــلا !
ولعلكم تكرهون شيئاً وهو خيـر لنـا . .

وفيما يختفي الدغفل عن أنظارنا تقوم شهرزاد متثاقلة ، كما على شهرزاد أن تقوم متثاقلة ، ونسمعها تقول في غنـج :

شهرزاد : الآن جـاء دوري . .
خـلا الميـدان .
وآن أوانـي كـي أركبـه .

ويهم السندباد بأن يقيم ظهره . ويحرك أطرافه وقد تخلص من العبء . فيبدو الألم على وجهه من جراء هذا الجهد والجوع القديم . ونسمعه يتـأوه ويقول :

السندباد : العنكبـوت ! الدغفـل !
ركبنـي فخانـني .
امتطانـي فطـوّح بـي .
لن أنسـى !
لن أغفـر !

المهرج : إن من ركبك خانـك
يـا سندبـاد .
أقم ظهـرك !

شهرزاد : العنكبوت . الدغفل .
شيـخ متخلـف .
ولىّ زمـان المطايـا !
كفـى ما ارتكبـوا من خطايـا !
ابشر . ابشر ، يـا سندبـاد !
جـاء الخـلاص .

أنـا الخـلاص .
القائـد !
لن أمكنه من ظهـرك
مـرة أخـرى

السندباد : مـن ؟ شهرزاد !
هل أنت الأمل الذي كان يراودني ؟
من قديـم الزمـان ؟

شهرزاد : ابشـر ، يـا سندبـاد !
أنـا الخـلاص ، يا حبيبـي .
لن يركبـك الدغفـل
بعـد الآن !

السندباد : كيـف يتحقق هذا الأمـل
يـا حبيبتـي ؟
من يحمـي ظهـري ؟

شهرزاد : أنـا ، يـا حبيبـي !

السندباد : كيـف يـا حبيبتـي ؟

شهرزاد : أمتطيـك أنـا !

السندباد : تمتطينني ؟ يعنـي ،
تركبيننـي ؟

شهرزاد : أبـداً .
الامتطاء غير الركوب .
الامتطـاء عود إلى الزمـان الأول
فروسيـة !

السندباد : أنـتِ ؟ !

شهرزاد : خفيفـة الـوزن أنـا ،
والظـل والـدم .
صغيـرة . كلـي نشـاط .
عمـري أمامـي .

أمتطيك وأطير بك .
جناحاك أنا ، يا حبيبي .
نِخ !
نِخ !

بدور : ولكنه مر على هذه التجربة .
هل نسي ؟
هل عادت ذاكرته عذراء ؟ !

شهرزاد : أنا جديدة ، يا روح أمها .
تجربة جديدة .
كلي نار !
جربُّوني أسركم .
جربوني يا عيوني !

المهرج : سوية ، يا شهرزاد !
بلا راكب ومركوب .

شهرزاد : اخرس أنت ، يا روح أمك !
قال : بلا راكب ولا مركوب !
فلماذا خلق الله الأكتاف
إذن ؟
كافر !

المهرج : الناس سواسية . .

شهرزاد : سوَّس الله عظامك !
أنت من ؟
من أبوك ؟
أصلك . فصلك . علمك . دينك ؟
نِخ !
نِخ !

المهرج : سندباد . يا سندباد !

لا تنــــخ !
هنـاك ظهـور منتصبــة
أكتــاف حــرة !
انــك إنســـان !

السندباد : أنا جائع . متعب . متفـرق .
جائــع إلـى الخــلاص .
إذا لــم يركبنــي
من يركبـــني ؟
أتركبـــني ؟

المهرج : موقعي ليس فـوق ظهـرك ،
يــا سندبــاد !
بــل معـــك !
إلــى جانبــك
نتكاتــف :
كتفــاً إلـى كتـــف .
وإذا شئــت ،
نتقــدم الصفــوف !

بدور : اركبــه ، يـا حنين . .
لمــاذا لـم تركبــه ؟
كيـف ضيعـت فرصـة العمـر
وأنـــت مشغـول بهذه السفسطـة ؟ !

المهرج : سفسطـة ؟ !
سفسطـة ، يــا بــدور !
أيغيــب الســر عنــك
مــرة ثانيـــة ؟ !
هذا هو السر الذي غاب عنك
حيـن زلــزل البركــان .

شهرزاد : تعــال ، يـا نــص لســان .
راحــت عليــك .
أسبقــك فأمتطــي .
وأُسكتُـك بأن أترك لـك مكانــاً
فــي القفــا .

المهرج : والتراخومــــا . .
وهــذا الانســان ؟

شهرزاد : حبّــة ، حبّــــة ، أكل العنـب .
نقيــم جبهـة ، يـا روح أمــك .
نِـــخ ! نِــخ !

المهرج : سندباد ! سندبــاد !

شهرزاد : صوتــي أعلــى .
صــوت المجد التليـد أعلــى
نِـــخ ! نِـــخ !
نِــخ ، فتبدأ المسيـرة
ونشـــرع فـي الإنشـاد .
نـــــخ !

فيبرك السندباد . فتركبه . فلما تعلو ظهره تخيّـل عليه وهي تنشـد نشيداً حفظناه في المدرسة الابتدائية عن ظهـر قلـب . ولـذلك لا يصـح ، في هذا المجال ، القيل والقال :

شهرزاد : بـلاد العـرب أوطانــي
من الشـام لبغـدان
ومن نجـد إلى يمــن
إلى مصـر فتطـوان
فلا حدّ يباعدنـا ولا ديـن يفرقنا
لسـان الضــاد يجمعنا

بغســان وعدنــان .
لنــا مدنيــة سلفــت
سنحييهــا وان دثــرت

(تصفيــق !)

ولــو فــي وجهنــا وقفت
دهــاة الإنس والجــان

(عاصفـــة مـــن التصفيـــق)

فهبـوا ، يـا بنـي قومــي ،
إلـى العليــاء بالعلـــم
وغنــوا ، يـا بنـي أمــي ،
بــلاد العــرب أوطانــي .

وفي لحظة من اللحظات ، حين يكون صوت النشيد يعلو أعلى من صوت شهرزاد ننتبهُ إلى أن السندباد ، أيضاً مشترك في الانشاد . بل نسمع صوتـه يعلو على صوت شهرزاد . وتأخذه النشوة . ويستبـد به الطـرب . فيفـرح ويمرح . فيما تكون شهرزاد على مثل حاله سوى أنها الراكبــة وهو المركوب .

وفي لحظة تالية نلاحظ ـ بلا دهشة ـ أن بدوراً ، نفسها ، قد استبـد بهـا الحماس . فأخذت تصاحبهما في الانشاد وتمرح وراءهما وهي مأخوذة .

وحين ننتبه إلى أنفسنا فإذا بنا ، نحن أيضاً ، نشارك في الإنشاد ، ندرك أنها غير مؤاخذة .

ويكون المهرج يتمتم بكلام غير مفهوم . ثم يضع كفّيــه على عينيه ، إما عن شعور بالاحباط وإما عن رغبة في أن لا يرى ما نرى من أمجاد .

ويغيب الفارس والفرس وبدور عن أنظارنـا . فنصمـت ذلك الصمـت

الذي يسبق العاصفة . أو صمت الولد السارق قد مُسك والتفاحة الحرام في يده .

ولا يبقى في القاعة سوانا ، نحن والمهرج ، وجهاً لوجه !

-٣-

الوجـــه المشـــرق

لا يبقى في القاعة سوانا ، نحن والمهـرج ، وجهـاً لوجـه . كلانـا يغض الطرف عن الآخر خجلاً من نفسه أو حرصاً على دخيلة نفسه .

وإذا بالمهرج يتقدم نحونا وإمارات التصميم بادية على وجهـه . فيخيفنـا منظره ، بالعينين الواسعتين ، الشاخصتين . فينفجر طفل بالبكاء . فتهزنـا المفاجأة . فنهمهم مدّعين أننا نضحك .

المهرج : حتى أنـت ، يـا بروتـس ؟ !
لا ، واللـه !
أنـتم ؟ !
ورب الكعبـة لأحملنكم علـى الطريـق !
إلا أنتـم !
أنتم الذين ، حين جاءكم الإعصار وفرّ الدغفل
تخلى عنكم كل الراكبين ، بالضاد . على ظهوركـم .
قالـوا : ليركبكـم الشيطـان ، إذا شئتـم .
أنـتم ؟
أنتم ، في عيونهـم ، أمـوات .

كما أن وطنكم ، في عيونهم ، قـد مـات .
متم فـي عيـون أعجـازهم .
أعجـازهم المفتحـة بـلا عيـون .
مـا داموا لا يستطيعـون أن يركبوكـم
ليركبكـم الشيـطان !
سيـــان !
الشيطـان أخـو الشيطـان
خونـــة !
لماذا بقيتـم فـي وطنكـم ؟
حتـى يركبكم العـــدو ؟ !

ويتكـىء على صندوقه . ويتنهد . ثم يقول :

المهـرج : أولاد النـاس . يـا أولاد النـاس !
أنتـم أبنـاء البلـد وبَنَاتـه .
أنتم أبنـاء الوطـن وبُنـاتـه .
إن من ألقـى عن كتفيه هذا الفيـل
لن ينخنخـه لا الزعيـق ولا العويـل .
اطمئنـوا ، يـا أبناء البلـد وبُناتـه .
بـدور عـادت إلينـا .
عـودي بـــدور !
أم بــــدر !

وإذا بصوت بدور يشق عنان السماء . نسمعها تنادي . ثم نراهـا ماثلـة أمامنا . بثيابها ممزقة ومضرجة بالدماء .

بـــدور : حنـين . . !
يـا حنـــين الصبـا !
أوطانـــي ضاقـت بنـا !

حين رفعنا هاماتنا
لنطل على الوطن ،
تفرقوا من حولنا ،
أيدي سبأ . .
أيدي أرانب . .
أصبحنا عالة . عبئاً على المجتمع ،
يا حنين . .
مجتمع حمّالي الأسيّا !
لا مكان إلا للحمالين .
وأما منتصبنو القامة
فتعج بهم السجون
وبطون الأرض .
وهناك . . .
لا مكان لنا !
لأن ضريح بدر
هنا !
وحرام علينا أن نزوره ، يا حنين !
حرام علينا أن ندفن معه !
حرام علينا أن ندفن معه ؟ !
لكع يحكم ، يا حنين !

المهرج : وهنا ، يا بدور !

بدور : فمتى تقوم الساعة ؟
أترى ضوءاً في السرداب ؟
عمّا يكشف صندوقك
من مستقبل ، يا حنين ؟

المهرج : لا أنا بصّارة ولا أنا برّاجة
يا بدور .

لست قارىء كف ولا منجّم أبراج .
بل أستعيد الماضي .
لا لكي أفتح جراحات
بل كي لا تذهب التجربة هباء
ولا تعود الذاكرة عذراء ،
أشبه بذاكرة طفل .
إذا لم نر الحاضر
لا نستطيع أن نرى المستقبل .
إن أمراً واحداً يقلقني في هذا الأمر ،
يا بدور .
وهو أن نقعد ننتظر الانفجار
قيام الساعة .
أن ننتظر ساعة لا يعود فيها
الحال محتملاً .
هذه الساعة لا تحين ،
يا بدور !
فالذي يحتمل منتظراً ساعة الانفجار
يصبح الماضي البشع ، في عينيه ،
أمراً جميلاً .
فيحتمل الأسوأ منه .
حتى إذا مضى
يصبح ، هو أيضاً ،
أمراً جميلاً !
إني أفكر بإخوة سعدي
وبإخوة سعادية .
لا يمكن أن يجتمعا على النفاق
إلا فيما وراء هذه الحياة .

قرأت الخطاب الذي لم يلق
فانتابتني الهواجس .
ها نحن نقترب من منتصف العقد الثاني
للاحتلال .
فلا عجب إن اضطرب صاحب الخطاب
أمام تعاظم المقاومة في وجه
القمع المتعاظم .
يبدي خوفه من أن يستيقظ
في صباح أحد الأيام ،
فيهوله ما يرى في المرآة .
يقول : « نستيقظ في صباح أحد الأيام
وننظر في المرآة
فلا نعود قادرين على تحمل
الوجه القذر
والمثير للإشمئزاز
الذي يبحلق فينا .
بدور ، يا بدور !
لقد حملت صندوقي
وأنا تستبد بي الهواجس
إذا لم يأت هذا اليوم ،
كل يوم !
وفي كل الأيام الماضية ،
إذا لم يأت حتى الآن ،
فإن بشاعة الانتظار
تجعل القرد في عيني أمه غزالاً .
الوجه الذي يبحلق في صاحبه !
أمن الصعب أن يتخيله صاحبه

وهو يبحلق فينا ؟ !
أما نحن ، يا بدور ،
فوجهنا مشرق .

بدور : وجه بدر !

المهرج : ووجه قاسم . ووجه خديجة .
وجه ياسين .
ووجه بدر
ووجهك ، يا بدور .

بدور : ووجهك ، يا حنين . .

المهرج : فلماذا نخفيه عن أعينهم ؟
إني أرى بصيص نور

بدور : شقائق نعمان تزهر فوق ضريح
بدر

المهرج : وأشقاء لنا . . .
شقوا على النفاق عصا الطاعة .
يحرصون على ضريح سعدي
كما يحرصون على ضريح سعادية .

بدور : حرصاً على الأحياء !

المهرج : حرصاً على الأحياء !

بدور : يطغى ظلام !

المهرج : وينتشر نور
في أماكن أخرى .
قامت ساعتهم
ولم تبق إلا ساعتنا .

بدور : لكع بن لكع يلي أمور الناس

المهرج : لا تقوم الساعة حتى يلي أمور
الناس لكع بن لكع !

بدور : نخلعه ونعود ؟

المهـرج : نخلـعه ونعـود .
نعـود ونخلعـه .
مسيـرة واحـدة
بـدور : تقـوم الساعـة ؟
المهـرج : تقـوم الساعـة
بـدور : متـى يـا حنـين ؟
المهـرج : غـداً ! يـا بـدور !
بـدور : غـداً ؟
المهـرج : غـداً .

وإذا بربيع وبسعدي وإذا بسعيد وسعادة وإذا بسعادية يقبلون في لبـاس أبيض ، بدون أجنحة ، يحملون باقـات من الزهور يقدمونها إلى بـدور .

وإذا بجمع من الصبية والصبايا ، أولئك الـذين رقصوا رقصـة الموت ، يقبلون متهللين ومستبشرين وفي أيديهم الزهور ينثرونها على بـدور .

ويغمر نور ساطع زاوية من زوايا المسرح . فيظهر وسط الضوء ، وكأنـه خارج من الضوء قبساً من نور ، شابا فارغ الطول . ويكون واقفاً على منصة يحمل في يده ورقة من الصبّـار ، التين الشوكي ، فلا تدمى يداه .

فتصرخ بـدور :

بـدور : قام بـدر ! ابنـي بـدر !
طلـع بـدر !
أورق بـدر !
اكتمـل بـدر !
ابتسـم بـدر !
المهرج : بـدور . .
غـداً ، يـا بـدور !

بدور : قام بدر !
أطْلَعَ بدراً .
أنْطَقَ صخراً .
حَرَّكَ ضميراً .

المهرج : غداً .
غداً ، يا بدور !

الجميع : غداً
في الغد . غداً !

ويمضون . وهم ينثرون الزهور ، الآن ، على الحضور . ويكون المهرج في مقدمتهم . يدفع بصندوقه.وإلى جانبه بدور وحولها ووراءهما بقيةالجمع .
ونسمعهم ، وهم يغيبون عن أنظارنا ، ينشدون بصوت واحد :

« الموعد في الغد .
غداً . غداً .
الحاضر يعلم الغايب .
غداً . غداً .
صندوق العجايب .
غداً . غداً .
صندوق العجايب .
غداً . غداً . »

وفيما نحن نودعهم بالتصفيق وبالهتاف والوقوف على الأقدام ، إذا ببدور تعود وهي تحمل باقة من الورود الحمراء تلقيها تحت قدمي بدر وتولي باكية .

فنسرع إلى بيوتنا ، وإلى أمهاتنا وإلى زوجاتنا وإلى أطفالنا ونحن بين مصدق ومكذّب .

أما أنا ، وقد يكون هناك غيري ، فلا أنام فيما بقي من جوف هذه الليلة . .

الفهرس